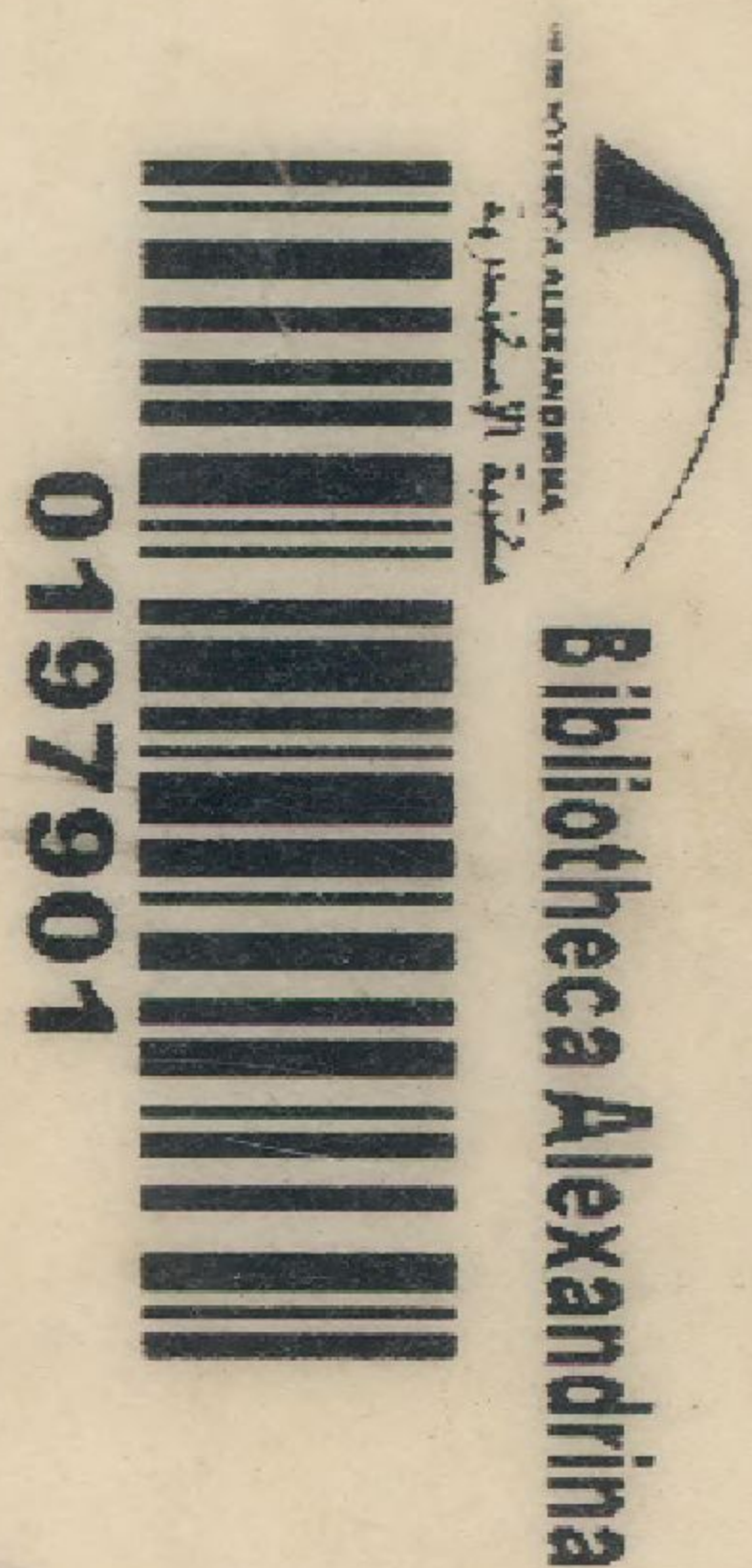


الدكتور محمد سامي الدهان

الناصر صالح الدين الأتوبي



دار المعارف بمطر



الناصر صلاح الدين الأيوبي

الدكتور محمد سامي الدهان

الناصر صلاح الدين الأيوبي

اقرا ٢٠٧

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٠٧ - مارس سنة ١٩٦٠

أنت دمشق للإسلام ظئراً
«صلاح الدين» تاجك لم يجمّل
ومرضعة الأبوة لا تُعق
ولم يوسم بأزين منه فرق
أحمد شوقي

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ه شارع ماسبيرو - القاهرة

الإهداء

إلى من يحمل رسالة صلاح الدين في جمع شمل العرب
وإنقاذ فلسطين . . .

محمد سامي الدهان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

شغل صلاح الدين الأيوبي زمانه وغير زمانه . وسالت في رسمه صفحات وصفحات بعضها بأقلام عربية وأكثرها بأقلام غربية . فقد نظر إليه العرب والمسلمون نظرهم إلى بطل من أبطال التاريخ ، وفارس من فرسان العصور ، وسياسي من ألمع السياسيين حتى غدا رمزاً وشعاراً من شعارات النضال والكفاح ، يتردد اسمه كلما عبس الوطن العربي حادث جليل ، ووقع في مأزق حرج ، وتكالبت عليه ذئاب الغرب . ونظر إليه الغربيون نظرهم إلى فارس وقف في وجه الدول الغربية ، وحارب كلّ عمره في نصرة العرب والإسلام ، فانتصر مرة وانكسر مرة ، ولكنه كان صورة للتسامح والفروسية ، فأنشوا فيه الكتب والدراسات كلما تحدثوا عن الحروب الصليبية فقد كان محوراً هاماً ، ودعامة أساسية ، وقلعة حصينة من القلاع التي صدت الحروب ، ووقفتها ثم دحرتها ، ومهدت

للظفر العربي والنصر الإسلامى .

وما نظن أن شريقاً شغل المؤرخين الغربيين وأذهانهم بعد
النبي المعظم كما شغلهم صلاح الدين ، فقد كانت حروبه
أشبه بفتوحات جديدة شبيهة بفتوحات العرب الأولى ، عبّر
عنها المسلمون المعاصرون أنفسهم فى القرن السادس للهجرة
بصور بارعة تشهد بصدق المقارنة ، فقال عماد الدين
الأصفهاني ، يوازن بين فتوحات المسلمين وغزوات صلاح
الدين : « والفرق بين فتوح الشام فى هذا العصر وبين فتوحه
فى أول الأمر ، فرق يتبين تبين المحيط الأبيض من المحيط
الأسود من الفجر . فإن الشام فتح أول الأمر ، والعهد
بالرسول صلى الله عليه وسلم غير بعيد ، والوحى ما كاد يتعطل
فى طريقه من السماء إلى الأرض بريد ، والعيون التى شاهدت
رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسلّ سيوفها من أجفانها ،
والقلوب التى شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره فى الفتح
منها بعيانها ، ورسل عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات
المؤتلفة مختلفة ، ونجدات السماء إلى الأرض متصلة بالملائكة
منزلة ومسومة ومردفة وأنه سيبلغ ملك أمته المثوبة المرحومة
ما ضمت عليه جوانبها . والروم حينئذ بغاث ما استنسر ،

والفرس يومئذ رنح ما استبصر . والحديد متنوعة أشكاله الرائعة . ولا طبعت سيوفه هذه القاطعة . ولا نسجت ثيابه هذه المانعة . والبروج لا تعرف إلا مشيدة لا مجلدة . والمنجنقات لا يتوثب اليوم من خشبها المسندة . والأقارن لا تتراجم بالنيران المذكاة ، والأسوار لا تتناطح بالكباش المشلاة » .

وكان العماد الأصفهاني يرى معجزة العرب لزمانه والإسلام لأيامه قريبة من معجزة العرب لأيام الرسول في الجهاد والنضال في سبيل الخير والدين . وهذه النظرة كانت تريب الغربيين ، وتخيف الصليبيين ، فقد كانوا يهجمون على الشرق الأدنى والعرب والإسلام في أساليب قريبة من أساليب عصرنا ، منها الاستيلاء على خيرات هذه الربوع ، وقتل القطان العرب وتشريدهم وكسر شوكتهم ، واستخدام أراضيهم مزارع ، واستغلال بيوتهم وحصونهم ، لذلك أرعدهم وجود صلاح الدين ووقوف المسلمين وراءه في ثياب الجهاد ، وفهم هذا البطل لهجماتهم وخطرها حق الفهم في عمق ووعي غربيين . فتحذثوا عنه وأطالوا ، وحاولوا أن يقلبوا النظر في فهم موقف صلاح الدين وفهم الأمة لعصره ، فأخفقوا في كثير من تقديرهم .

ونحن لا نؤلف هذه الصفحات لعرض النظريات ومناقشة الآراء ، وموازنة ما قال الغربيون وما قال المسلمون في صلاح الدين وفي الحروب الصليبية فما تتسع لمثل ذلك . ولكننا نريد أن نصور العصر الذى نشأ فيه ، والأسباب التى دفعت الفرنجة إلى الهجوم والتزول بأرضينا ، ونحاول أن نرسم حياة الرجل وأسلوب تفكيره وطريق جهاده ، وأن نتخذ من العصر والرجل سبيلا إلى فهم عصرنا وحياتنا ومحلنا من العالم الأوربي اليوم ، وقد عاد الأوربيون بتفكيرهم في القرن العشرين إلى ما كان عليه أجدادهم في القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر . يحاولون من جديد أن ينشثوا في بلادنا ولايات مقتطعة لهم ، تحت أسماء جديدة ، ليست باسم الدين هذه المرة ، وإنما هى باسم حق إسرائيل في ربوعنا ، يغذونها بالمال والرجال والعتاد لتكون رأس الحرب تسدد حين يريدون إلى صدر العرب والإسلام ، كما كانت عكسا ، وكما كانت صور ، وكما كانت قبلهما أنطاكية .

ونحن نؤمن أشد الإيمان بأن التاريخ يتكرر أبدا ، وأن النفوس تشرب من نفوس الأجداد عزتها وكرامتها ، وترتوى بأعجادها ومفاخرها ، وتسعى جاهدة إلى تقليدها والسير على

طريقها . فالعرب في الشام خلال القرن السادس للهجرة شربوا من تاريخ العرب في القرن الأول للهجرة ، فليس غريباً أن تعب نفوسنا في القرن الرابع عشر بعد ثمانية قرون مما كان لأجدادنا من مفاخر ومآثر . ونعتقد أن على رأسها سيرة صلاح الدين ، وأيادى صلاح الدين والقوم الذين ساروا بقيادته وتحت لوائه ، فهم أجدادنا وهم الذين كتبوا هذه الملحمة الخالدة التي نعرض لها هنا في كثير من اليسر والبساطة والبعد عن التعقيد ، والهرب من الأرقام الكثيرة والأسماء المتعددة ، والتفاصيل البعيدة ، فنحن نستعرض من صفحات التاريخ ، ولكننا لا نكتب التاريخ ، فلذلك مصادر غير هذا الكتيب ، يحسن الرجوع إليها حين رسم المعارك في تفصيل ، وتحديد المواقع في دقة .

ولعلّ من أهداف هذه الصفحات أن تنير القرن السادس للهجرة أمام الأعين الشابة المفتحة للنور من أبنائنا وبناتنا وأن توضح ما كانت عليه مصر وسورية خلال ذلك القرن من جهاد مشترك ونضال موحد وجيش واحد وقيادة واحدة ، وأغراض واحدة . فقد وقفنا معاً بين الموت والحياة ، بين النصر والقبر ، تحملاً لراية القتال ، وتسيران معاً أمام

حصون العدو ، فيسقط المصري والسوري ، وتختلط دماؤهما
معاً ، وأشلاؤهما معاً ، فترويان الأرض التي نعيش عليها ،
وتختلطان بالتراب الذي نودعه خيراتنا وزروعنا . فقد اشترك
السكان معاً في العرق والدمع والأسى والفرح والحزن والضحك ،
وكانت قلوب كل من الشطرين تلتقي في معركة الحياة خلال
ذلك القرن كأنها في صدر واحد ، تنبض بحركة واحدة هي
الدفاع عن الوطن العربي ، في حدوده الواسعة من أقصى
أفريقية إلى حدود الفرات آنذاك ، تحت قيادة موحدة هي
قيادة « صلاح الدين » ، يقيم في القاهرة حيناً وفي دمشق
أحياناً ، ولكنه كان فيما بين هذه الإقامة وهذه الإقامة يقف
أمام القدس وعكا ، ويافا ، وصور ، وحلب ، والحزيرة ،
وأنطاكية وغيرها من حصون الوطن العربي ، لا يبالي بعواصف
الطبيعة وأمطارها ورعودها ، وشمسها وحرها ، ووعورة الأرض
وجفاف الطريق ، في سبيل الوصول إلى النصر والحفاظ على
حدود العرب والإسلام ، وحماية هذه الحصون من المغيرين
البنزطيين أو المعتدين الأوربيين ، أو من الأشقياء العملاء ،
أو من الجواسيس الذين كانوا يعبدون المال وحده ، فيتآمرون
مع الأجنبي المحتل .

ويشهد الله أننا وقفنا غير مرة عند تسطير هذه الصفحات وقفة الدهشة والذهول ، لتقارب الأحداث بين عصر صلاح الدين وعصرنا وأحوال زمانه وزماننا ، حتى نخفنا أن يظن بنا القارئ الظنون في اتباع الخيال وركوب أجنحة الوهم ، وحتى رأينا من واجبنا أن نثبت في ذيل الصفحات مصادرها . ولكننا عدلنا عن هذا خوف الإملال والاتساع ، لئلا يخرج هذا الكتيب عما رسم لمثله في هذه السلسلة . وهذه هي فائدة الصفحات التي نرسلها حيّة قريبة من الأذهان لتكون نداء لمن يحب أن يسمع صوت الحق والجهاد ، وصورة لمن يريد أن يتبصر بحالنا وما لنا ومستقبل أمتنا .

وما لسيرة عطرة أن تثير في نفوسنا العزة والكرامة والقوة كما تثير سيرة صلاح الدين الأيوبي ، وما لعصر مظلم خائف مضطرب بأن يوحى إلينا بالعبرة والدرس كما يوحى عصر صلاح الدين . ولهذا حرصنا على رسم السيرة في إيجاز ووصف العصر في اختصار .

والله الموفق للصواب والهادي إلى الخير .

الفصل الأول العصر المضطرب

اشتهر عصر صلاح الدين الأيوبي بأنه عصر الحروب الصليبية ، فقد فتح عينيه والصليبيون في أرجاء الوطن العربي الكبير ، وأغمض عينيه وهو يفكر في مطاردة آخر حصونهم ، وقضى حياته كلها في كفاح ضدهم وحرب على جيوشهم و قتال مع قوادهم . فكأن حياته صورة من صور العصر ، وكأن العصر قطعة من حياته . لذلك وجب أن نرسم الأسباب التي جعلت منه قائداً محارباً ، والظروف التي ساقته إلى حرب الصليبيين ، وحال البلاد الغربية آنذاك ، بعد أن نصف أوربة لزمانه وقبل زمانه .

إن الحروب الصليبية لم تنشأ كما يدل عليها اسمها لحماية الدين المسيحي أو الدفاع عن الصليب ، فلم يهاجم المسلمون حصون الدين ولم يحاربوا الصليب ، ولم يعتدوا على العقائد ، فقد انقضت خمسة قرون تقريباً على دخول الإسلام في هذه

المنطقة ، وانتشر فيها وعمّ خيره وعدله ، وسادت المساواة وقامت الأخوة بين سكان سورية المقيمين وبين العرب الوافدين ، وعاش أصحاب الديانات على خير ما يعيش الناس ، واختلط المسلم والمسيحي تحت راية الحضارة ، وتجاور الذميون وغير الذميين ، في ظل الإسلام وقوانينه ، ونبغ من هؤلاء وهؤلاء أطباء وعلماء وكتاب ، وصناع وزراع ، وساد من هؤلاء وهؤلاء وزراء وأمراء ووجهاء ، ودرجت القرون الإسلامية على المواطنين القاطنين في هذه الربوع من غير نظر إلى عرق مفضل أو مذهب مقدّم ، فقد كان أفضل الناس وأكرمهم من ذهب مع الخير وقام بالتقوى في خدمة وطنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالخير والتقوى . لذلك سالت في خدمة الإسلام والعرب أعراق وأعراق من كل صوب وحذب ، واشتهر من هؤلاء من خدمه جدّه ، وأعاناه جهده ، ونصره جهاده ، ورفعته إخلاصه ، حتى بلغ من بلغ مرتبة الوزارة ومحلّ السلطان .

ولكن الحقّ أن هؤلاء المواطنين كانوا حرباً على الأعداء من كل لون ، يقاتلون من خرج على إجماع المسلمين ولو كان من صميم العرب ويقاتلون من اعتدى على البلاد

الإسلامية ولو كان من أقرب الجوار . ولذلك كان يحتدم القتال بين المسلمين والبنزطيين خلال العصور الإسلامية ، كما كان يقع دائماً بين الدول المتجاورة . واشتد القتال منذ القرن التاسع للميلاد وغلا في القرن العاشر ، حتى حسب المؤرخون أن البنزطيين يحاولون منذ ذلك العهد طرد المسلمين ، واحتلال بلادهم ، وخاصة حين استولى نقفور فوكاس (فوقاس) على جزيرة كريت ومدينة أنطاكية واستخلصهما من أيدي المسلمين ، وحين اجتاح الشميثق أراضي كليشيا وسورية وفلسطين . وكان ذلك حين نهض بالإمبراطورية البنزطية رجال أشداء ، طمحووا إلى المجد العتيق وأرادوا أن يكونوا في قومهم كما كان أبطال إسبارطة ، فأفادوا من اضطراب المسلمين وتخاذلهم إلى دويلات وأمراء ، واغتنموا غفلة الدهر . ولكن هذا لم يدم طويلاً .

ففي أواخر القرن العاشر الميلادي خرج من سهول تركستان فئة من الأتراك ، حملوا السلاح للغزو ، ودخلوا الحروب للمغانم وكان على رأسهم أبناء زعيم من زعمائهم اسمه «سلجوق» . واعتنق هؤلاء الأتراك دين الإسلام ، وتحمسوا للدين حماسة الحديث العهد بالدين ، فانقلبوا من فئة إلى قبيلة ومن قبيلة

إلى أمة — كما يقول الكاتب المؤرخ فشر — ففتحوا خراسان وإيران ، وقام زعيمهم (أرطغرل) سلطانا في بغداد . سنة ١٠٥٥ م ، وأغدقت عليه الخلافة العباسية المتداعية كل ألقاب التعظيم ، وظل السلجوقيون من أتباعه يتدفقون على الشام وفلسطين بفضل (ألب أرسلان) فانتزعوها من يد الفاطميين . ثم توجهوا بعد ذلك إلى آسيا الصغرى ، فهجموا على الدولة البزنطية وأعملوا فيها السيف ، وحصد ألب أرسلان زهرة الشباب البزنطى فى وقعة منازكرد ، شمالى بحيرة (وان) بأرمينية سنة ١٠٧١ م ، وأسر الإمبراطور نفسه ، وغدت آسيا الصغرى خامدة لا حراك بها .

وهكذا غلب البزنطيون أواخر القرن الحادى عشر للميلاد غلبة لم يعرفوها من قبل على يد المسلمين ، فقد خسروا بعد وقعة منازكرد (مانزكرت) خيرة جنودهم وخلاصة قوادهم البواسل وفقدوا منطقة كانت تغذيهم بالقوى العسكرية الهائلة ، من ضباط وجنود كانوا يدافعون عن الإمبراطورية خير دفاع . وغدت الدولة البزنطية بعيدة عن مناطق آسيا الغنية ، وفصلت عن الأقاليم الممتعة ، وأصبح السلاجقة يهددون وجودها كدولة ، حين اتخذوا نيقية أولا ، وقونية ثانيا . عاصمة لهم .

وهذا الانكسار العسكرى بعث الفتنة والفوضى فى
الإمبراطورية البيزنطية ، وأصابها بشلل هدا من أركانها ،
ورماها فى وهدة عميقة من الخذلان ، وكادت تلفظ أنفاسها ،
لولا قيام إمبراطور بزنطى جديد يتصل بنسب أسىوى عريق ،
ويتصف بالشجاعة والدهاء والبصر والفطنة ، فهض لتنظيم
الجيش ، والدوائر الحكومية ونذر نفسه لدفع خطر السلاجقة .
وفكر هذا الإمبراطور فى طلب النجدة من الغرب
اللاتينى لإنقاذ الإمبراطورية ، ونصرة المسيحية وكنايسها ،
فأرسل إلى البابا أوربانوس الثانى يستنجد به ، ويذكره بأن
بيت المقدس ، وأنطاكية ، والرها ، غدت فى أيدي المسلمين ،
وأن القسطنطينية صائرة إليهم إذا ما دام الحال على المنوال ،
وهنا فتح باب الحملة الصليبية .

وهذا هو سبب قولنا إن الحروب الصليبية لم تنشأ لأن
المسلمين هجموا على حصون الدين المسيحى أو لأنهم هددوا
بإبطال الصليب ، وإنما نشأت بدافع سياسى هو الدفاع
عن بزنطية قبل كل شىء ، ونصرة القسطنطينية الأرثوذكسية .
فهى قد نبتت من القسطنطينية لا من رومة . وقد ولدت
لدافع حربى لا لدافع دينى .

ولسنا وحدنا ممن يقول بهذا ، فقد قاله مؤرخو الأوروبيين ، أمثال فشر وديورانت . وقد أراد « ديورانت » أن يصور العصر وأن يتحدث عن الحروب الصليبية فقال ما عبارته : « وأول سبب مباشر للحروب الصليبية^(١) هو زحف الأتراك السلاجقة . وكان العالم قبل زحفهم قد كيف نفسه لقبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى . وكان الفاطميون حكام مصر قد حكموا فلسطين حكماً سمحاً رحياً ، استمتعت فيه الطوائف المسيحية بحرية واسعة في ممارسة شعائر دينها ، إذا استثنينا بعض فترات قصيرة قليلة . نعم إن الحاكم بأمر الله ، الخليفة المجنون ، دمر كنيسة الصريح المقدس (١٠١٠ م) ولكن المسلمين أنفسهم قدموا المال الكثير لإعادة بنائها . وهذا اعتراف صريح من كاتب غربي متدين بتسامح المسلمين وبعدهم عن التنكيل بالنصارى ، وهو وكذلك إشارة إلى أن سبب الحروب أول الأمر كان لنصرة الدولة البزنطية عسكرياً ضد السلاجقة المسلمين .

ولإلى هذا السبب السياسى العسكرى سبب آخر اقتصادى

(١) وسبب تسمية الحروب الصليبية أن المحاربين الأوروبيين وضعوا على

ألبسهم علامة الصليب حين شرعوا فى الغزو .

هو الذى دفع إلى الحروب الهمجية ، وهو رغبة المدن الإيطالية (بيزا ، وجنوة ، والبندقية) فى توسيع سلطانها التجارى ، فقد أصبح البحر المتوسط حرا بعد سقوط صقلية فى أيدي النورمان ، وتخلي المسلمين عن جزء كبير من أسبانية ، وأصبح كأنه للتجارة المسيحية وحدها بل للمدن الإيطالية ، فأرادت هذه المدن أن تقضى على منافسة المسلمين لها فى هذا البحر قضاء مبرما ، فيصبح لها شرق البحر كما أصبح لها غرب البحر . وحلمت بأن تفتح أسواق الشرق الأدنى لبضائع أوربة الغربية وأن تغزو آسية كما غزت أوربة ، فوضعت أسطولها البحرى تحت تصرف الغزاة الأوربيين .

هذان هما السببان الرئيسيان فى هذه الغزوات الأوربية التى دعيت « بالحروب الصليبية » فظن الناس أنها نشأت أول الأمر للدين ، وواقع الأمر أنها نشأت للسياسة العسكرية والسياسة الاقتصادية ، ثم استغلها رجال الدين .

فقد عرفنا أن إمبراطور بزنطة طلب نجدة عسكرية لاستعادة ممتلكات الدولة البزنطية فى آسية ، ولكن البابا فكر فى شيء أوسع وأهم ، وهو أنه بهذه النجدة سيجعل الكنيسة الأرثوذكسية تحت رحمته ، وأنه يوحد الكنيسة

المسيحية كلها تحت رايته ، وأنه يصبح السيد الأوحى والزعيم
المفرد ، فيستولى على كنائس البزنطيين وقلوبهم وحبهم ،
ويضم إلى ذلك كنيسة بيت المقدس والأراضي المقدسة .
وهذه غاية بعيدة المدى شديدة الطموح لم يكن يستطيع
تحقيقها لولا طلب البزنطيين أنفسهم . فهو يستطيع أن يمر
من طريق البر ببلاد أصبحت صديقة له ، بل إنها تطلب
منه المرور والنجدة ، فيبلغ بها إلى استعادة القدس .

ولم يكن البابا يرى من تناقض بين المطلبين فهو يستطيع
أن ينجد البزنطيين ويستطيع أن يستعيد القدس ، ولكن
إنقاذ الأراضي المقدسة موضوع يثير الحماسة ، ويبعث
الأخيلة في الفروسية الأوربية ، ويذكى في نفوس أمراء
الإقطاع وقراصنة النورمان حب القتال في سبيل العقيدة
المقدسة . لذلك ألح في خطبه على الدين ، وشمر في طوافه
بشمال إيطاليا وجنوبي فرنسا ، وجمع آلاف الناس يندد
بالمسلمين في ظاهر الأمر ، وهو في باطنه يريد أن تعود
رومة حاضرة العالم .

ولعل الذين ساروا تحت لواء البابا فهموا مرماه ، وعرفوا
أنهم بهذه النصرة والنجدة يضمنون الإمبراطورية البزنطية إلى

جانبيهم ، فلم يكن من سبيل قبل ذلك إلى ضمها وجمعها إلى صفوفهم ، فهي دولة معادية تقف أمام التبشير الكاثوليكي . والسبيل الأوحـد لذلك كان في خلع الإمبراطور البزنطي وفتح القسطنطينية بالقوة . ولكنها الآن تفتح الباب للقصاد البابويين ، وترضى بأن يكون البابا حكما في الأمور الناشئة عند الخلاف ، فهي تسمح للسلطان الكاثوليكي بالتغلغل فيها والتدخل في أمورها ، ودخول بلادها والانتفاع بمحصونها ، كل ذلك طمعا في النجدة المرجوة .

ولا بد هنا من الإشارة إلى نجاح البابا في دعوته ، وإلى اندفاع الجنود تحت رايته ، فقد وعد المشتركين في الغزوات وعودا مغرية وقدم الفوائد المدهشة . وعد بغفران الذنب ، وإعفاء سكان المدن من الضرائب ، وتأجيل ديون المدينين ، وتخفيف أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم . ولكنه انضم إلى الجنود رجال سثموا الفقـر ، ومغامرون يحبون الجرأة والخيال ، وتجار يبحثون عن أسواق ، وفرسان غادر أرضهم أرقاؤها فأصبحوا بلا عمل .

وكان أن انضم الأشراف إلى صفوف المقاتلين ، وكانوا كلهم تقريبا من الفرنسيين أو الفرنجة . وهم الذين وفدوا في

أول حرب صليبية ، فأصبح الشرق إلى اليوم إذا ذكر غربي أوربة سماها (بلاد الفرنجة) وإذا ذكر حرب الصليبيين سماها (حرب الفرنجة) . وعلى ذلك جرى مؤرخو العرب فلم يذكروا في الغالب إلا هذا الاسم . ولعل بعضهم قد فطن منذ زمن بعيد إلى إغفال اسم (الصليبيين) في عباراته لئلا يختلط الأمر على الناس ، ولئلا يظن بعض المواطنين في البلاد العربية بأن الصفة تضيفهم بضرر أو ترادف . فالعرب المسلمون كانوا يفرقون بين المسيحية والصليبية ، بل يفرقون بين مسيحية الشرق ومسيحية الغرب ، وكانوا على وعي عظيم وفهم عميق لا يشبهه فهم الغزاة الأوروبيين .

ولقد شهد مؤرخو الأوروبيين بأن الجموع الصليبية القادمة من الغرب كانت على فقر في الثقافة والأخلاق والترف يجهلون كل شيء حتى أبسط مسائل الصحة والترتيب والنظام . وأنهم دلوا على أخلاق منحطة منذ الحرب الأولى ، فقد عمدوا إلى السلب والنهب واقتراف الجرائم والآثام .

ولكن هذا كله لم يمنع من وصول الجموع الصليبية إلى آسية الصغرى ، فاستطاعت أن تحاصر أنطاكية وأن تستولي عليها ، وأن تسير إلى الجنوب فتستولي على القدس .

وأنها إلى ذلك كله استطاعت أن تؤسس إمارات لاتينية في الشرق ، في قلب البلاد الإسلامية ، وأن تغلب السلاجقة الأتراك على أمرهم ، وأن تصيب المسلمين بانكسارات في عقر دارهم . .

ورغم الانتصارات والانكسارات التي نتحدث عنها بعد قليل ، فقد انتصر الغزاة اللاتينيون بفضل البزنطيين ، وانتصر البزنطيون بفضل اللاتينيين ، فانكسر السلاجقة ، وأبعدوا عن نيقية ، وعادت إلى بزنطية أملاك غنية ، وولايات واسعة . ودلت الحروب الصليبية أن المهاجمين الأوربيين كان أكثر همهم أن ينشثوا دولا لأنفسهم في قلب العالم الإسلامي ، وقد ساعدتهم على ذلك حال الدول الإسلامية آنذاك ، من انقسام وتباغض وحروب داخلية .

* * *

وذلك أن الصليبيين حين قدموا إلى الشرق كانت البلاد الإسلامية موزعة متفرقة ، وكانت سورية مقسمة بين عدد من الأمراء السلجوقيين المختصمين المتناحرين ، فلم ينهض أحد لنجدة الأمير ياغى سيان صاحب أنطاكية . ومنها

بسط الصليبيون سلطانهم على شمالي سورية . واتخذ بغدوين
إمارة « الرها » واستقل بها . واستولى غيره على طرابلس الشام ،
كما سقطت القدس في يد ملك آخر صليبي . .

وكان على الموصل عماد الدين زنكى التركى ، وكان مؤدباً
أول الأمر للأميرين السلجوقيين ألب أرسلان وفروخشاه
وأصبح لقبه بالتركية (أتابك) ملازماً له . وكان جندياً شجاعاً
وسياسياً بارعاً وإدارياً حازماً ، فاستطاع أن يوسع رقاع ملكه ،
وضم إليه الجزيرة الفراتية . وانتصر على الفرنجة فانتزع الرها
من أيديهم .

ولما مات عماد الدين سنة ١١٤٦ م اقتسم ولداه ملكه .
فأخذ أكبرهما سيف الدين غازى الموصل والجزيرة . واستولى
أصغرهما (نور الدين محمود) على سورية وجعل حلب قاعدة
ملكه . ويبدو أن نور الدين ورث عن أبيه شجاعته وسياسته
وحكمته ، فراح يتصرف تصرف العاقل العادل نحو رعيته
وملكه ، فخفف عن كاهل رعيته أعباء الضرائب ، وحصّن
بلاده ، ودعم الحصون والمراكز الحربية ، ورعى دور الثقافة
والعلم ، وشاد المساجد وعمّر التكايا والحنانات وأنشأ الكليات
والمستشفيات في جميع أنحاء المملكة ، وكان يفيض على

طلاب العلم والأدباء بواسع كرمه وعظيم سخائه .
 وكانت سياسة نور الدين تهدف أول ما تهدف إلى
 تحرير البلاد الإسلامية وطرد الصليبيين ، فنهض إلى « الرها »
 وقد استولى عليها الفرنجة ثانية ، فأجلاهم عنها ، وأثخن في
 جنود جوسلين ، وانتقم من الخونة ، وصرع أعداءه ، فكان
 لانتصاره دوى في أوروبية ، أهاج الشعور فيها من جديد ،
 فهبوا لحملة جديدة استجاب لها البابا أوجانيوس الثالث ،
 وانضوى تحت لوائها لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث
 ملك الألمان سنة ١١٤٦ م. ولكن الحملة منيت بالجوع والعطش
 والمرض . ومع هذا صممت على أن تستولى على دمشق .
 وكان على دمشق آنذاك معين الدين أنر وهو أحد
 الأتابكة السلاجقة ، فلما وصلت الجيوش الصليبية أمام
 دمشق استنجد بنور الدين في حلب ، فهرب الصليبيون ،
 ولحق بهم معين الدين ونور الدين ، فدكت جيوشهما حصن
 عريمة وحملت زيموند أسيرا إلى حلب .
 ومع هذه النجدة كان معين الدين يخشى تعاظم نور
 الدين ويكيد لملك حلب ، مع علمه بأن الصليبيين أحق
 بأن يخشوا ، فوضع نور الدين حداً لمؤامراته ، وأقطعه حمص

ثم نزعها منه وأعطاه بالس . واستطاع نور الدين بفضل
دهائه أن يوقع بين البيزنطيين والفرنجة ، فأقنع الأولين بأن
يصونوا حدود مملكتهم وأن يلتزموا الحياد ، وألا يتورطوا في
مغامرات تفسد عليهم عيشتهم وأمنهم .

وقد أنعم الخليفة العباسي على نور الدين بلقب « الملك
العاذل » تقديراً له على انتصاره على الصليبيين ، ووقعت
في تلك الأثناء هدنة قصيرة بينه وبين الفرنجة ، استطاع
أن يعمر في أثنائها الخرائب التي سببتها الزلازل في بلاده .
وفي سنة ١١٦٠ ، توفي الخليفة المكتفي العباسي ،
وخلفه المستنجد بالله ، وكانت مطامع نور الدين قد بلغت
حداً بعيداً في الاستيلاء على مصر ، واستخلاصها من أيدي
الخلفاء الفاطميين ، الذين فقدوا كل سلطان وبلغ منهم
الضعف مبلغاً عظيماً ، فانتقل حكمهم إلى أيدي وزراءهم
يعبثون بهم ، ويضللون الشعب ، ويترددون في الحياة ،
ولا يحجمون عن الاستعانة بالفرنج وعقد المعاهدات معهم ،
والتمكن لهم في أرض مصر ، وإنزالهم في سواحلها مما يضر
بالقضية الكبرى التي كان يدين بها نور الدين وهي تحرير
الوطن العربي الكبير من الأجانب والغزاة . ولكنه عرف أنه

لن يتمكن من ذلك إلا إذا غزا مصر ، وضمها إلى ملكه ،
 ليأمن السواحل كلها . فليس من الحكمة في شيء أن يظل
 العالم الإسلامي مقسما موزعا بين خليفتين ، خليفة في بغداد ،
 وخليفة في القاهرة . وليس من السياسة في شيء أن يظل الجناح
 الأيسر للعالم الإسلامي في يد القواطم الشيعة وهم على انحلال
 وتراخ وتفكك وعبث ودسائس ، والفرنجة يعبثون في الإمارات
 والمقاطعات ، ينقلون جنودهم عن سبيل البحر على أيدي
 الموانئ الإيطالية والسفن الإيطالية ، تردهم الإمدادات الهائلة
 المتواصلة . وينكبون السكان ويقتلون الآمنين .

وقد انعقدت همة البطل نور الدين على توحيد هذه البقاع
 وإخضاع مصر وفاق خطة رسمها ونفذها . على أيدي رجال
 من أعوانه ، وعلى رأسهم « بنو أيوب » فاستطاع أن يزيل
 العار عن تاريخ المسلمين وأن يبدأ خطط الوحدة الكبرى
 بيده ، وأن يكملها بعده صلاح الدين .

الفصل الثانى

بنو أيوب

اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا فى نسب بنى أيوب . فقال ابن الأثير إن أصلهم من الأكراد الروادية . وذكر ابن واصل غير ذلك فقال : « وأنكر جماعة من ملوك بنى أيوب النسبة إلى الأكراد ، وقال إنما نحن عرب نزلنا عند الأكراد ، وتزوجنا منهم . وادعى بعضهم النسب إلى بنى أمية » . وابن العديم روى الاختلاف حول النسب وذكر أن إسماعيل بن سيف الإسلام بن أيوب ملك اليمن هو الذى ادعى النسب فى بنى أمية ورمى إلى الخلافة . ونقل ابن خلكان عن ابن شدّاد مؤرخ سيرة صلاح الدين أنه سأل صلاح الدين عن هذا الاختلاف فخرج بذلك كله إلى جملة نقلها عنه وهى قوله : « ليس لهذا الأصل أصلا » . ولعل سبب الاختلاف هو تسلسل النسب نفسه ، فقد رواه ابن خلدون فقال : « وجدهم هو أيوب بن شاذى

ابن مروان بن عليّ بن عشرة بن عوف الحميري الدوسي ،
هكذا نسبه بعض المؤرخين لدولتهم . وأدلى بشكه في النسب
وتسلسله ، كما شك فيه غيره ، فوقف عند « مروان وتساءل
من هو مروان ؟ أهو الخليفة الأمويّ كما قال بعضهم ، أم
هو مروان آخر . فإن أكثر المؤرخين يرددون أن صلاح
الدين كان يذكر دائما مع أبيه وجده فحسب « يوسف بن أيوب
ابن شاذي » ، فلا يكاد يتجاوز الجلد أكثر الكتاب الذين
تحدثوا عنه . بل إنهم يقفون عند شاذي ، وينكرون ما وراءه
من نسب .

ونحن عليّ هذا لا نرى في النسب كبير أمر ، وسواء
أكان كرديا في نسبه أم غير كردي ، فإنه تحدث بالعربية
وأحبّ علماءها وفقهاءها وروى أنه كان يكتب النثر ،
ويرسل الشعر ، وأنه جمع حوله أفضل الكتاب والشعراء .
ولعل الذين رأوا له هذا النسب الكردي إنما كان من كلمة
« شاذي » ومن أقوال الناس عن نسبه الكردي . ولعل المؤرخين
صنعوا له هذا النسب ووصلوه بآدم ليكون لهذا البطل نسب
عريق وعز موروث ، وفخر متناقل كما نسبوا إلى الأماكن
والمواقع والأعلام ، فاخترعوا واشتقوا .

بل لعل الذى دفع إلى هذا كله ، ولادة الجدد شاذى
فى « دوين » وهى منطقة كردية تقع فى أقصى الحدود
الشمالية من كردستان . وليس من الضرورى أن يرجع حماة
الأنساب إلى الأصل والفصل ليبرهنوا على شكيمة صلاح
الدين وصلابته وصفاء عرقه وسمو نسبه . وليس من اللازم
حتمًا أن ينشأ العبقري فى أسرة متصلة الحلقات بالعظماء
والعباقر . وسكوت صلاح الدين نفسه خلال حياته كلها
عن نسبه أو دفاعه عن أجداده ، أو انتسابه إليهم فى أحاديثه
وأقواله هو سكوت عن هذا النسب المتكلف . فقد روى
مصاحبوه وهم فضلاء مؤرخون ، منهم القاضى بهاء الدين
ابن شداد ألف فيه كتابا سماه « سيرة صلاح الدين »
والكاتب عماد الدين الأصفهاني ألف فى فتوحه كتابا كذلك
سماه : « الفتح القسى فى الفتح القدسى » وأسامة بن منقذ
روى وقائعه فى كتاب سماه « الاعتبار » والقاضى الفاضل
كتب له وروى رسائل كتبت عنه ، لم تنشر كلها على
الناس ، وابن الأثير فى رسائل كذلك عن عهده وبعيد
عهده . وليس فيها عن نسبته إلى الأكراد كبير أمر ، فلم
تكن نظرية العرق والجنس آنذاك كبيرة الأهمية فى تقدير

هم الأبطال ، وفي دفاعهم عن حمى الإسلام ، وفي جهادهم ضد الكفار الغزاة . وإنما كان يهمهم ما كانوا فيه من كرب أى كرب لحصار الفرنجة وغزوهم البلاد الإسلامية ، حتى ذكر العماد الأصفهاني يصف هول الأيام التي كان يعيشها بقرب صلاح الدين ، وهذا الوصف ينطبق على أيامه كلها بقوله : « والشام الآن ، قد فتح حيث الإسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا . وهريق شبابه واستشن أديمه ، وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا . وقد أطلع شرف السمائة وهي للملك المعترك ، وكثرت معائره بما نصب الشرك من الشرك . وأخلق الحديدان ثوبه وكان القشيب . وذوى غصنه وكان الرطيب ، ونصلت كفه وكانت الخضيب . وطال الأمد على القلوب فقست . ورانت الفتن على البصائر فطمست . وعرض هذا الأدنى قد أعمى وأصم حبه . ومتاع هذه الحياة القليل قد شغل عن الحظ الجزيل في الآخرة كسبه . والكفار قد خشنت عرائكهم . واتسعت ممالكهم . واستبصروا في الضلال . واستبضعوا للقتال . وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت . ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البر ناشبة الصوت » .

وسوء أكان هذا الوصف ينطبق على أوائل أيام صلاح الدين أو خلال شبابه ، فهو وصف ينطبق على العصر الذي ولد فيه الفتى .

وقد قصّ المؤرخون أن « شاذى » كان له ولدان هما « أيوب وشيركوه » ولدا في قرية « أجدانكان » أو شيخان . وأن أباهما كان صديقاً لرجل لغريقى اسمه « بهروز » ، وكان عبداً في « دوين » وارتفع حتى وصل إلى مركز سام في حكومة الترك ، ثم أصبح معلماً ومربياً لأولاد السلاجقة . وقد غادر « مجاهد الدين بهروز » « دوين » إلى بغداد سرّاً ، وتقدم إلى السلطان مسعود بن ملكشاه فعينه محافظاً لبغداد . فلما تولى المنصب بعث في طلب صديقه « شاذى » فغادر الرجل وطنه ، واصطحب أسرته معه إلى بغداد ، وفيها أيوب وشيركوه .

وبعد حين من الزمن أقطع السلطان مسعود بن ملكشاه هذا الرجل « بهروز » ولاية تكريت بصفة التملك ، فأناج صديقه في أمور المقاطعة ، لما كان بينهما من صداقة وود وإكبار . وغدا « شاذى » حاكماً لقلعة تكريت ، ومدينة تكريت مشهورة بين بغداد والموصل ، وهى إلى بغداد أقرب ،

بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخا . وقلعتها في طرفها الأعلى ،
 راكبة على دجلة ، وهي قديمة حصينة مبنية من حجر كبير .
 ومات شاذى بعد ذلك ، ودفن في تكريت ، فخلفه
 ابنه الكبير « أيوب » فيها ، وظل على حكمها حتى كانت
 سنة ٥٢٦ هـ . فصادف أن اشتبك أتابك الموصل « عماد
 الدين زنكى » في حرب ضروس جنوبي تكريت ضد
 جيش للسلاجوقيين ببغداد أسفرت عن هزيمته . فلأذ بالفرار
 من الميدان ، ولجأ إلى قلعة تكريت ، في رحاب نجم الدين
 أيوب ، فأجاره أيوب ، وأكرم وفادته ، وهياً له المعابر ،
 وسهل له عبور دجلة ، وهو يعلم أنه بذلك يسىء إلى حكومة
 بغداد ويفسد الأمور بينه وبينها . فما الذى دفعه إلى ذلك ؟
 إن المؤرخين لم يعللوا ولم يوضحوا . وكل ما قالوه إن حكومة
 بغداد غضبت على أيوب ، وخاف بهروز من أعمال أيوب ،
 ومن أخطاء أخيه أسد الدين شيركوه ، ونخشي غضب السلاجقة
 عليه ، فأقال « أيوب » من النيابة عنه ، وأنذره بوجوب
 مغادرة تكريت .

وهكذا اضطرت الأسرة إلى مغادرة تكريت ليلا في
 دياجير الظلام ، والحزن ينجم على أفرادها ، والمستقبل المجهول

يفتح لها ألف ريب وشك ، وفي هذه الحال من المهاجرة المفاجئة ، والتشرّد المنتظر ، ولد لأيوب ابنه « صلاح الدين » بقلعة تكريت سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م .

وقد ذكر ابن شداد هذه الولادة فقال : « كان مولده رحمه الله — على ما بلغنا من ألسنة الثقات الذين تتبعوه حتى بنوا عليه تسيير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم ، في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وذلك بقلعة تكريت . وكان والده أيوب بن شاذى رحمه الله تعالى واليا بها . وكان كريما أريحيا حلما حسن الأخلاق . مولده ببدين ، ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل المحروسة ، وانتقل ولده المذكور معه ، وأقام بها إلى أن تورع » .

القسم الأول

تحت راية السلطان محمود نور الدين

الفصل الثالث

صلاح الدين في دمشق

٥٤١ هـ - ٥٥٩ هـ

ولد الفتي يوسف صلاح الدين كما رأينا في ليلة كشيبة ،
كان أبواه فيها يزعمان الرحيل عن تكريت ، ويرحلان عن
عزّ منيف ومهمة عالية ، إلى مكان يلجئان إليه ، فتشأم
الأب وتطير ، وقال صاحب طبقات الشافعية في ذلك :
« وقيل إن أباه خرج من تكريت في الليلة التي ولد فيها
صلاح الدين ، فتطيرا به . وقال بعضهم لعلّ فيه الحيرة
وأنتم لا تعلمون ، فكان كذلك » . وقد ودعهم وجهاء البلد
أسفين .

وانتقل الوليد مع أبويه وعمه إلى الموصل ، وكان عليها
عماد الدين زنكي ، فذكر خدمة أيوب ، وما كان له من
يد في إنقاذه وإكرامه ، فأحسن إلى الرجل وأخيه ، « وأقطعهما

إقطاعات جليلة ، وترقت أحوالهما عنده . فلما فتح عماد الدين زنكى بعلبك جعل نجم الدين أيوب دزدارا - أي صاحب القلعة - فيها ، فلم يزل متوليها إلى أن قتل عماد الدين زنكى على قلعة جعبر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة . وهكذا قضى الطفل سنتين في الموصل وسافر بعدهما مع أبيه إلى بعلبك سنة ٥٣٤ هـ ، وليث فيها حتى أصبح في التاسعة من عمره ، سنة ٥٤١ هـ .

ويشاء طالع الفتى أن يولد في قلعة ، وأن يقضى صباه في قلعة بعلبك ، وهي عظيمة حصينة ، تحيط بها الآثار اليونانية الرائعة ، والأعمدة الطويلة الباهرة ، فكأن التاريخ يلف الفتى من أطرافه ، وتشرب عيناه من صفحاته المجيدة ، وينشأ بين الجمال والجلال ، في كنف أب حاكم وأسرة مرعية الجانب .

ولا شك في أن الصبي تلقى العلم على عادة أهل زمانه عن معلمين وفدوا إلى بيت أبيه ، أو انتقل إليهم ، فتعلم الكتابة والقراءة كما تسمح السن في التاسعة لذلك . فلما قتل عماد الدين ، راسل حاكم دمشق مجير الدين أبا الفتى في أن يسلم بعلبك مقابل إقطاع جليل في دمشق ، فأجاب

إلى ذلك ، وترك بعابك ، وحمل ابنه وأسرته إلى دمشق
وتسلم الإقطاع الذى عين له ، سنة ٥٤١ هـ .

وأما عمّ الفتي « أسد الدين شيركوه » فقد اتصل بخدمة
نور الدين محمود حاكم حلب وهو ابن عماد الدين زنكى ،
وأصبح من أخصّ أصحابه ، وغدا مقدّما على سائر أمرائه
لما عرف من شهامته وشجاعته وإقدامه فى الحرب على
ما لا يقدم عليه غيره ، ولم يزل حاله ينمو عنده إلى أن
أقطعه مدينتى حمص والرحبة .

وهكذا غدا والد صلاح الدين معزّزا مكرما فى الأمراء
بدمشق ، وغدا عمه معزّزا كذلك فى الأمراء بحلب ، وعادت
للأسرة أيامها المشرقة ، حتى أصبح أيوب قائد القواد فى
دمشق وشيركوه قائد القواد بحلب .

فلما مات معين الدين أنر القيم بتدبير مملكة دمشق
سنة ٥٤٤ هـ ، خلفه « أيوب » والد صلاح الدين وأضحى
صاحب الكلمة فى دمشق . وذلك أن مليكها مجير الدين
كان ضعيفا قليل النفوذ يستنجد حينما بالفرنجة وحينما يطمعهم
فى الاستيلاء عليها ، فخاف حاكم حلب نور الدين من
هذا ، وأراد أن يملك دمشق لئلا تقف عثرة فى وجهه دون

قتال الفرنجة ، فأرسل شيركوه قائده لطلب دمشق سنة ٥٤٧ هـ ، فلم يشأ أيوب أن يقف في وجه أخيه ، وأن يجري دماء المسلمين في سبيل ملك عارض ، فراح يفاوضه وانتهى الأمر بدخول جيوش نور الدين دمشق سنة ٥٤٩ هـ وانتقلت هذه الحاضرة الكبيرة إلى يد قوية ، يحكمها ملك عظيم هو نور الدين ، جمع أكثر الشام إلى حكمه ، وصيره تحت رايته ، وأغدق على الأخوين أيوب وشيركوه ، وأضحى أيوب من أخص جلساء نور الدين ، وعينه حاكما لدمشق وظل فيها حتى استدعاه ولده إلى مصر سنة ٥٦٥ هـ .

أما الشاب يوسف صلاح الدين ، فقد عرفنا أنه وفد مع أبيه في التاسعة إلى دمشق وظل فيها ، تحت كنف أبيه الحاكم البطل الداهية ، يعب من الثقافة والمعرفة ، ويشرب من منابع الخير الثرة الغنية . فقد كان العلماء يقدون إلى دمشق أيام نور الدين الشهيد من سمرقند في الشمال وقرطبة في الغرب ، فكأنها جامعة كبيرة للعلم ، أو كأنها بغداد لعصر المأمون تعج بالمدارس والزوايا والمساجد عامرة بالذكر والعلم . وقال ابن واصل إن نور الدين حاكم دمشق كان يجمع أهل العلم عنده للبحث والنظر ، ويستقدمهم من

البلاد الشاسعة ، فمن جملة من قدم عليه الفقيه قطب الدين الشافعي فبالغ في إكرامه والإحسان عليه . وبني دارا للحديث وأوقف عليها وقوفا كثيرة ، وهو أول من بني دارا للحديث ، كما بني مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلمهم الجرايات الوافرة . وشيد المساجد ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن وقوفا جلية .

وإذا كانت دمشق على هذه الحال ، فقد كان أيوب أبو صلاح الدين مقربا لنور الدين يبال عنده ما لا ينال غيره فقد حكى ابن واصل كذلك قال : « وكان نور الدين إذا جلس لا يجلس أحد إلا بإذن الأمير نجم الدين أيوب ابن شاذي رحمه الله . وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ومجد الدين ابن الداية وغيرهما ، فإنهم كانوا يقفون بين يديه إلى أن يتقدم إليهم بالعود . وكان مجلسه فيما روى كصفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس حكم وحياء ، وهكذا كان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال الصالحين والمشورة في أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو^(١) » . وما دما في سبيل وصف دمشق لأيام نور الدين ،

(١) ابن واصل ج ١ ص ٢٨٥ .

نريد أن نتعرف إلى الحال العلمية التي كانت آنذاك ،
ولنفهم الجو الذي عاش فيه صلاح الدين ، نحب أن نروى
قول ابن عساكر فقد وصف نور الدين وقال :

« وكان حسن الخط ، حريصاً على تحصيل الكتب
الصحاح والسنن ، كثير المطالعة للفقهاء والحديث ، مواظباً
على الصلوات في جماعة ، كثير التلاوة والصيام والنسخ ،
عفيفاً متحريراً في المطعم والمشرب ، عرياً عن التكبر ، وكان
ذا عقل متين ورأى رصين ، مقتدياً بسيرة السلف الصالح
متشبهاً بالعلماء والصلحاء ، وروى الحديث وأسمعه بالإجازة » .
وفي هذه المدينة العظيمة دمشق ، وتحت راية هذا
المليك الكبير نور الدين ، عاش يوسف صلاح الدين
وتربى ، وترعرع ، وحضر مجالس نور الدين ، فأفاد من
ذلك فائدة عظيمة ، وأخذ بأطراف العلم والفروسية ، فقد
كانا شعار الرجال الأبطال في ذلك الزمان .

وكان أيوب والد صلاح الدين يحبّ لعب الكرة ،
ويبرع في ركوب الخيل ، فأخذ ابنه عنه أنواع الرياضة ،
كما أخذ ابنه عن العلماء دروس الفقه والحديث والنحو ،
واستمع إلى الشعر والنثر ، وأعجب بالبيان الجميل ، وتعلم

القرآن ، وحفظ أشعار الحماسة في الشعر . واستطاع صلاح الدين أن يفيد من أخلاق نور الدين ومن حبه للجهاد ، ومن سعيه في جمع كلمة المسلمين فتعلق بذلك كله ، وغدا فيما بعد صورة عن هذا الملك العظيم ، بل أصبح أعظم سلطان بين المسلمين ، في عصره وبعد عصره ، والفضل في سموه ونبوغه ، وتفوقه ونجاحه ، يعود إلى أيامه بدمشق ، وإلى تربيته في كنف نور الدين ، فقد كانت له مدرسة كبرى ، وكان له المليك نور الدين الشهيد إماما وقائدا ومثلا أعلى ، وقدما قال ابن الأثير : « قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام ، وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين » . وسرى ما كان من صلاح الدين منذ خرج من دمشق وتفرغ للعمل ، ودخل في الجهاد ، وأمسك بيديه القوة والسلطان ، ونفهم أثر نور الدين فيه وفي سيرته وفي أعماله .

الفصل الرابع

في غزو مصر

٥٥٩ هـ - ٥٦٤ هـ

كانت البلاد الإسلامية في الشرق الأوسط منقسمة إلى شطرين كبيرين ، شطر يتبع الخلافة العباسية القائمة في بغداد ، وشرط يتبع الخلافة الفاطمية القائمة في مصر . وكان خليفة الفاطميين في هذه الآونة هو العاضد لدين الله ، ولكن الحكم كان لوزرائه ، يسود منهم من قهر بالسيف ، والخليفة يطيعه ، فكان الخلفاء تحت إمرة الغالبين على الحكم .

وحدث أن تغلب ضرغام بن سوار على الوزارة وأخرج « شاور أمير الجيوش » وقتل ابنه . فهرب شاور إلى دمشق يستنجد بنور الدين محمود ويستنصره على ضرغام ، ويعدده بأن يجعل لنور الدين حصة من البلاد ، على أن يتصرف

شاور تحت أمر دمشق ونهبها واختيارها . وتردد نور الدين طويلاً ، وذلك أنه كان يطمح إلى ملك مصر تقوية للملكه بالشام ، وليحصر الفرنجة بين جيشي مصر والشام ، ولكنه كان يخاف على العساكر الشاميه من خطر الطريق بسبب توسط الفرنجة بينه وبين الديار المصرية ، فهم يحكمون القدس وبعض المناطق ، ويفصلون بذلك بين دمشق والقاهرة .

واستطاع شيركوه عم صلاح الدين أن يقنع نور الدين بأن احتلال مصر يجعل القدس بين نارين ، نار من الشام ونار من مصر ، فيقع النصر ، ويطرد الصليبيون ، ووحدة القطرين تكون كارثة على الأعداء ونصراً للمسلمين ، ويتخلص العالم الإسلامي من عدو مغير نصب نفسه في قلب البلاد العربية ، كما نصبت اليوم إسرائيل نفسها في الموقع نفسه ، والتاريخ يعود بدروسه وعبره وظروفه وملايساته ، يفيد منه من يتعمق الأمور ويقرأ الأحداث ، ويستنتج العبر .

لذلك قرر نور الدين ضم مصر إليه ، فمن ضمها رجحت كفته وزادت قوته ، واستخار الله سبحانه ، وقوى

عزمه وصمم على إجابة شاور إلى ملتمسه . وتقدم إلى شيركوه (أسد الدين) بالتجهيز للمضى مع شاور . وكان شيركوه لا يبرم أمرا ولا يقدم على عمل إلا بعد استشارة ابن أخيه صلاح الدين ، كما يؤكد ابن شدّاد ، وبينهما من السنّ فارق كبير .

وهكذا سارت الحملة الشامية بقيادة أسد الدين ومعه ابن أخيه وسنه سبع وعشرون سنة ، عام ٥٥٩ ، وسار معهما نور الدين إلى طرف بلاد الإسلام ليشغل الفرنج عن التعرض لأسد الدين . وتابع الجيش الشامي سيره إلى الديار المصرية فاجتاز شرقى الكرك والشوبك والعقبة والسويس وأصبح على أبواب القاهرة .

فخرج ضرغام للقاءه بعساكر مصر ولكنه انهزم أمامه ورجأ إلى القاهرة فلاحقه أسد الدين ، وأدركه وقتله ، ونخلع على شاور ، وأعادته إلى الوزارة ، وأقام هو بظاهر القاهرة . ولكن شاور غدر به ، ورجع عما كان وافق عليه نور الدين ، وأرسل يطلب إليه الرجوع إلى الشام ، فرفض أسد الدين ، وهنا استنجد شاور بالفرنج وخوفهم من ملك نور الدين لمصر ، فبادروا إلى تلبيته وطمعوا في امتلاك

مصر . فلما علم نور الدين بذلك سار بعسكره إلى بلادهم ليشغلهم عن قصد مصر ، ولكنهم صمموا على دخولها ، وجمعوا جموعهم وحاصروا « بلبيس » حيث كان أسد الدين وجنوده ، فحاصروه ثلاثة أشهر ، ثم راسلوه في الصلح بعدما علموا أن نور الدين قصد حارم وهدد ولاياتهم في سورية . فرضى أسد الدين بالصلح ، وسلم ما كان بيده من البلاد إلى المصريين وعاد إلى الشام .

واتصل شاور بملك القدس من الصليبيين وسمح له بإقامة حامية صغيرة من جنده في القاهرة خوفا من عودة نور الدين إليه ، ففضل أن يستظل بظل المستعمر الأوربي طمعا في بقاءه على الوزارة والحكم ، وأن يعيش ذليلا خائنا تحت إمرة الفرنجة لئلا يعزل من منصبه ، ورضى بأن ينصر المغيرين من أوربة ضد أبناء قومه ودينه في سبيل مرتب زائل ووزارة هزيلة ، وكذلك يصنع مرضى النفوس والقلوب حين تنعدم في صدورهم ضمائر الوطنية ، ومشاعر القومية وتموت في نفوسهم كل عزة وكرامة .

وكان شاور يعرف بأن دخول الفرنجة في مصر مناقض لشروط المعاهدة وأن نور الدين لن يرضى بذلك ، ولكنه

آثر الإيقاع بجيش الشام والمسلمين ، فقرر نور الدين إرسال أسد الدين بحملة ثانية إلى مصر ليملكها ، وسير معه جماعة من الأمراء بلغت عدتهم ألى فارس ، وجعل معه ابن أخيه صلاح الدين ، وكان ذلك سنة ٥٦٢ هـ ، بعد ثلاث سنوات من الحملة الأولى ، لم يستقر خلالها صلاح الدين في دمشق التي أحبها ، ولم يشأ أن يغادرها ، وقد أصبح في الثلاثين من عمره .

وسار أسد الدين إلى مصر ، وعبر النيل ونزل البحيزة ، وتصرف في البلاد ، وأقام فيها نيفا وخمسين يوما ، فهب شاور يستنجد بالفرنج ، فأتوه واجتمعوا في صف واحد مع عساكر شاور . وغدا مسلمو الشام يحاربون مسلمي مصر في سبيل وزارة شاور وأطماعه ونجسته ودنائه ، ووقعت الحرب فانتصر أسد الدين وصلاح الدين ، وكسر الفرنج شر كسرة ، وانهزموا لا يلوون على شيء .

ومضى أسد الدين في طريقه إلى الإسكندرية ، فسلمها أهلها إليه كرها لأعمال وزيرهم شاور ، وحباً بالشاميين ، وسعيًا وراء مذهب السنة . فاستناب على الإسكندرية ابن أخيه صلاح الدين يوسف ، وحكم الشاب هذه المدينة

العامة خير حكم ، وقام بأمر الدفاع عنها خير قيام حين عاد إليه الفرنج يحاصرونه ، حتى قلّ الطعام في البلد ، وصبر أهلها ، فاضطر شاور والفرنج إلى طلب الصلح ، وبذلوا في سبيل ذلك خمسين ألف دينار ، وقررت المعاهدة أن ينصرف الطرفان عن أرض مصر ، فعاد أسد الدين وابن أخيه إلى دمشق ، وتسلم المصريون الإسكندرية ، ولكن الفرنج تركوا حامية من فرسانهم بمنصر غيلة وغدرا وخيانة من شاور .

وهذه هي المرة الأولى التي ينفرد فيها الشاب البطل صلاح الدين بالدفاع عن مدينة كبيرة ، وبقيادة جيش كبير ، أفاد منهما كل الفائدة . وزاد عليها بأن زار بعد الصلح معسكر الفرنجة قرب الإسكندرية ، ومكث فيه بضعة أيام ، عرف خلالها الأنظمة العسكرية الأوروبية ، وفهم تنظيماتهم وتعبثاتهم . وعاد إلى دمشق وفي قلبه شعور جديد وإحساس جديد ، فكأن المعركة قد غيرت من مفاهيم عيشه ووقفته على خطة جديدة ينتهجها في المستقبل . وليث الشاب سنتين في دمشق ، علم بعدها أن ملك القدس الصليبي (أمريك) طمح في الاستيلاء هذه المرة

على مصر ، بعد أن عرف هو الآخر عورات الدفاع ،
 وحال الحكم وفساد الحاكمين فيها ، واطلع من تقارير
 جواسيسه على واقع الانحلال والضعف في الخلافة الفاطمية ،
 وانهيار السلطان في مصر ، فاندفع إليها واستولى على كثير
 من مرافقها ، وسام أهلها الذل والعذاب والهوان .
 فأرسل الخليفة الفاطمي رسالة يستنجد فيها بنور الدين ،
 وضع فيها شعور النساء المسلمات يستصرخن ضمير الإسلام ،
 ويستغثن بإخوانهن في الشام فاهتز قلب نور الدين ،
 واستجاب للنداء ، وأمر أسد الدين بالتوجه إلى مصر ،
 كما أمر صلاح الدين بالسير معه . فتردد صلاح الدين
 لأمر لم يستطع تفسيره المؤرخون ، ولكنهما مع ذلك سارا
 سنة ٥٦٤ هـ ، بجيش يضم نخبة الجنود والضباط ، يبلغ
 عدده ثمانية آلاف هذه المرة . وسعى ملك القدس في أن
 يحول بين لقاء جيشي مصر وسورية واتفاقهما على قتاله ،
 ولكنه أخفق كل الإخفاق ، فأخفق ورجع خائباً إلى بلده ،
 ودخل أسد الدين القاهرة واجتمع بالعاقد خليفة الفاطميين ،
 وخلع عليه ، وأجرى عليه وعلى عساكره من المال ما بعث
 السرور والنشاط .

ودبت البشائر في العالم الإسلامي كله لاستنقاذ الديار المصرية من يد الفرنجة ، وكانت من أجل الفتوح وأعظمها ، فقد اتحد البلدان ، وتوحد الجيشان ، وصفت الغايات والنيات وانتصرت الآمال الوطنية .

وعرف شاور أن الأمر قد أفلت من يده ، وأن حكم مصر يكون بيد أسد الدين ، فراح يعمل الدسائس لاغتيال قواد الشام ، ولكن صلاح الدين تنبه للأمر ، فأعمل الحيلة على إخراجه للقنص والنزهة ، وانقض عايه ، وأرسله أسيرا إلى الخليفة ، فأرسل إلى صلاح الدين يأمره بقطع رأسه وتخليص البلاد من الخائن اللعين ، ونهب داره وملكه .

وحينذاك أرسل الخليفة العاضد في طلب أسد الدين شيركوه ، وعينه وزيرا ، ومنحه لقب الملك المنصور أمير الجيوش ، وكتب له بذلك منشورا ، وفوض إليه أمور الخلافة والقيام بأعباء حفظها والذب عنها ، وأصبح يدير الحكومة المصرية .

فأقطع البلاد للعساكر التي قدمت معه ، وجعل ابن أخيه صلاح الدين مباشرا للأمور ، وبيده زمام الأمر وأنهى بعده . فأرسل الشعراء من الشام يهتثونه على النصر

والظفر والملك ، فكتب إليه عماد الدين الأصفهاني :
فتحت مصر وأرجو أن تصير بها .

ميسرا فتح بيت القدس عن كتب

أنت الذى هو فرد فى بسالته

والدين من عزمه فى جحفل بلحب

إلى أن يقول :

ردّ الخلافة عباسية ودع ال

مدعى فيها يصادف شرّ منقلب

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها

فالحزم عندى : قطع الرأس والذنب

ولكن أسد الدين لم يطل به الأمر حتى مرض واعتل

واعتراه ألم عظيم ، فمات فى هذه السنة ٥٦٤ هـ ، وكانت

وزارته شهرين وخمسة أيام ، ولكنه خدم الإسلام وحارب

الفرنجة عشرين عاما .

فأرسل الخليفة العاضد يستدعى « صلاح الدين »

ليخلع عليه ويوليه الوزارة ، فلما حضر لقب بالملك الناصر ،

وجعل دار الوزارة ، هى الدار التى كان بها عمه ، وكتب

إليه « العاضد » بمنشور ، لعله آخر منشور فاطمي ،
 فقد انقراض أمر الفاطميين ، وانقضت عرى دولتهم ،
 وقام صلاح الدين بإحياء ملك جديد هو ملك الأيوبيين
 كما نرى بعد قليل .

الفصل الخامس

حاكم « مصر »

٥٦٤ هـ - ٥٧٠ هـ

حين عهد الخليفة « العاضد » إلى صلاح الدين بالوزارة سنة ٥٦٤ هـ وقف بعض الأمراء النورية موقف التردد في الطاعة له ، فراح الفقيه عيسى الهكاري يحدثهم في أمره ويقربهم من وده ، ويدعوهم إلى عون صلاح الدين بمختلف الأساليب ، فبعضهم يستجلبه باسم الصلة الكردية - كما يذكر ابن واصل - وبعضهم كان يطمعه بالإقطاع والمال ، ولكن عددا منهم ظلّ على عناده زمنا فاختلفت آراء الأمراء ، ثم اجتمعت كلمتهم بعد ذلك . وقدمت وفود الهناء وأمداد الدعاء متواصلة على الولاء ، وثبتت قدم الملك الناصر أبي المظفر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ورسخ ملكه والخطبة على المنابر بالديار المصرية للخليفة العاضد

الفاطمي ، وبعده للملك العادل نور الدين . فالملك في ظاهر الأمر له ، ولكن المكاتبه كانت ترد عليه من نور الدين : « بالأمير الأسفهلار » ومعناه مقدم العسكر ، وكان نور الدين يكتب اسمه قبله تعظيماً لنفسه ، ولا يفرده بالمكاتبه ، بل يكتب إليه : « الأمير الأسفهلار صلاح الدين ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا . .

وفهم صلاح الدين بثاقب رأيه — وهو في الثانية والثلاثين — أن عليه أن يجمع القلوب . حوله ، وأن يستميل الأمراء إليه ، فراح يخرج المال ويقوى الصلات ، فأحبه كثيرون ، وقويت شوكته ، وضعف أمر العاضد .

وعلم نور الدين أن الفرنج قد اجتمعت لتسير إلى مصر ، فأمدّ صلاح الدين بعسكر فيهم الملك المعظم توران شاه بن أيوب ، وهو أكبر من صلاح الدين ، وقال له نور الدين لما أراد أن يسيره إلى أخيه :

« إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضر كحيثند وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامى ، وتخدمه

بنفسك كما تخدمني فسر إليه وأشدد أزره ، وساعده على ما هو بصدده .

وهذا كلام من نور الدين يدل على شدة قلقه وبعد نظره وعظيم حرصه على حكم مصر ، فهو يرى في صلاح الدين نائبا عنه قائما مقامه ، يتكلم باسمه ، ويمثله في تلك الديار ، فهي في ملكه وهو حاكم على سورية ومصر ، قد جمع شملهما معاً تحت رايته .

ولكن صلاح الدين مدّ ظله على القصر وتحكم في البلاد وشعر كثيرون بوطأته عليهم ، وعرفوا أن سلاطنتهم القديم قد زال ، فأحبوا الراحة منه ، وأجمعوا على مكاتبة الفرنج ليصلوا إلى البلاد ، فإذا خرج صلاح الدين إلى لقائهم قبضوا على من بقى من أصحابه في القاهرة ، وحينذاك يجتمعون مع الفرنج على حربه وحرب أصحابه واستئصالهم ، ويقتسمون البلاد بينهم وبين الفرنج ، وقام على رأس هذه المؤامرة رجل خصي يقال له مؤتمن الخلافة جوهر ، وأرسل ساعيا يحمل إلى الفرنج بريده ، واكتشف صلاح الدين الرسالة وما فيها ، وعمل في القبض على جوهر ، واغتاله من مأمنه وأتى إليه برأسه سنة ٥٦٤ هـ .

وثار السود عبید القصر لمقتله ، وكانوا یزیدون علی
 خمسين ألفا ، ولهم محلة عظيمة علی باب زويلة ، فأرسل
 صلاح الدین من أوقع الحریق علی أموالهم وأولادهم وحريمهم ،
 فولوا منهزمين ، ولم یبق منهم إلاّ الشريد ، وضعف أمر
 العاضد وتلاشى أمره ، ولكن الخطبة ظلت باقية له ،
 وبعده لنور الدین ، وعرف نور الدین أن أمر الخلافة
 بمصر فی سبیل الزوال ، وأن الخلافة فی بغداد لا يمكن أن
 تقف فی سبیل أمجاده ، ولكن الصليبيين هم وحدهم مصدر
 القلق ، وعثرة فی طريق الوحدة الكبرى للمسلمين بل فی
 طريق وحدة مصر وسورية ، لذلك كان همه الوحيد فی
 إزالتهم وطردهم من القدس وغيرها .

وكان الصليبيون أنفسهم يفكرون فی الموضوع نفسه ،
 ويعرفون أن وحدة القطرين سبیل إلى زعزعتهم وطردهم نهائيا .
 فلما رأوا صلاح الدین قد تمكن من مصر ، وأزال عنها
 الفوضى والفساد ، واستقرت بها قدمه وعساكره النورية
 أيقنوا بالهلاك وخافوا ذهاب البلاد الساحلية من أيديهم فهي
 علی خطر من هجمات المسلمين . لذلك كاتبوا لإفرنج
 صقلية والأندلس وغيرهم ، واستمدوهم واستنصروهم ،

فجاءتهم الإمدادات بالأموال والرجال والسلاح ، وعند ذاك
اعتدوا للتزول على دمياط ، بعد أن عرفوا كره كثير من
الأمراء لصلاح الدين وانصرافهم عنه إلى دمشق غيرة وحسدا .
فلما وصل الروم والفرنج دمياط من داخل البحر
ومعهم آلات الحصار والمنجنيقات ، هبّ صلاح يستنجد
بنور الدين ويشكو إليه ما هو فيه من المخاوف على دمياط
من الخارج ، وعلى نفسه وملكه ممن وراءه من الحائقين
عليه من المصريين . فجهز نور الدين العساكر وأرسلها
إليه طائفة إثر طائفة ، وراح يناوشهم في بلاد الشام ليشغلهم
عن دمياط ويخفف على صلاح الدين وطأتهم ، فنجحت
خطته . وحين رأوا تتابع الأمداد إلى دمياط من القاهرة
ودمشق ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخربها ،
رجعوا عن دمياط خائبين بعد أن أقاموا عليها خمسين يوما ،
وكان رحيلهم سنة ٥٦٥ هـ . وسرت البشائر في القلوب ،
وهتف الشعراء بصلاح الدين يهنئونه على النصر العظيم ،
ويتفألون خيرا بنكبة أسطول ملك القدس إذ تسلطت الريح
فقضى عليه .

وأرسل السلطان صلاح الدين إلى نور الدين يطلب

أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب ، فجهزه نور الدين بالعساكر ، وأضاف إليهم من كان يأنس بصحبة صلاح الدين ، وصحبهم في الحراسة ليرد عنهم الصليبيين ويؤمن وصولهم إلى مصر ، فوصل أيوب وصحبه إلى القاهرة ، في هذه السنة (٥٦٥ هـ) ، وبذلك اطمأن صلاح الدين إلى من ينصره ويدعمه في مصر بدلا ممن تولى عنه .

ويذكر المؤرخون أنه اتفق لأيوب مع والده صلاح الدين يوسف شبيه ما اتفق ليعقوب مع ابنه يوسف عليهما السلام حين قدم على والده ووجده متملكا للديار المصرية وقال : « ادخلوا مصر إن شاء الله آمين » . وسلك صلاح الدين مع أبيه من الأدب ما جرت به عادته وفوض الأمر كله إليه ، وحكمه في الخزائن بأسرها ، وأنزله قصر اللؤلؤ المطل على خليج القاهرة ، ولكن أباه رفض ذلك كله تاركا لابنه سدة الحكم .

وانصرف صلاح الدين إلى خير مصر ، فأنشأ فيها مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية . وعنى بالقضاة وتلفت إلى إكرامهم وإكبارهم .

وخرج إلى جهاد الفرنج خارج مصر ، فأغار على

الرملة وعسقلان ، وهجم على ربض غزة ، ثم عاد إلى القاهرة ،
ومنها سار إلى الإسكندرية ليشاهدها ويرتب قواعدها ،
وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها ، فقد صفا له الجو ، وانتقل
من مدافع ضد الفرنجة إلى مهاجم ، وأصبح يرعب الصليبيين
ويقتض مضجعهم ، ويخيف أسوارهم وقلاعهم ، فقد
استطاع أن يوطد الأمن في بلاده وأن يخمّد الفتن داخلها ،
وأن ينظم أمورها ، وأن يبسط العدل في أروقتها ، وأن يسود
الإخاء بين أفرادها ، وأن يلتفت الناس إلى مصالحهم في
طمأنينة ورخاء . والأمن في الداخل يبعث على الثقة والقوة
ويمهد للصحة والعافية فيستطيع البلد أن يقوم للدفاع عن
حدوده في ثقة وأن يرد أعداءه عن أرضه ، وأن يضمن
فسادهم في بلاده . وهكذا كان لصالح الدين أن يتلفت
إلى الأمور الكبيرة الهامة ، وأن يفكر في السياسة العليا —
كما نقول في تعابيرنا اليوم — فقد مرض العاضد الخليفة
الفاطمي ، وطال مرضه في جسمه وفي حاشيته ، فابتعد
الناس عن ذكره ونسوا ما كان من أيامه المريضة وحكمه
الهزيل والفتن التي قامت في الشعب والقصر ، حتى طمع
الفرنجة في أيامه بالملك والوطن .

فأرسل نور الدين يطلب إلى صلاح الدين في قطع الخطبة للعاقد ، وأن يخطب للخليفة من بني العباس فترى في الأمر ليل الناس في مصر إلى العلوية ، ثم جمع مجلس شوره وعرض عليهم طريقة العمل حتى إذا قرأ الرأي على ذلك ، أمر بقطع الخطبة للعاقد وإقامة الخطبة للمستضيء بنور الله العباسي ، فخطب الخطباء بذلك في الأقاليم وكان العاقد مريضا ، ولم يعلمه أحد ، حتى مات في عاشوراء من سنة ٥٦٧ هـ . وكان آخر خلفاء الفاطميين .

ولما توفي العاقد جلس الملك الناصر للعزاء ، وأظهر البكاء والحزن ، ومشى في جنازته إلى قبره ، ثم تسلم القصر بما فيه من الخزائن والذخائر ووزع الأموال على من حوله ، وكان صلاح الدين قد وكل بالقصر الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي إثر فتنة جوهر ، فضبط الأمير القصر ، لا يخرج منه شيء ولا يدخل إلا بمعرفته . فلما مات العاقد احتيط على أولاده وأهله في موضع خارج القصر ، واحترز عليهم ، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا ، وأطلقت الجوارى والعبيد . وكانت في القصر خزانة كتب يزيد ما فيها على مائة ألف وعشرين ألف مجلدة ، وفيها النفائس المخطوطة بالخطوط

المنسوبة ، فحمل منها إلى الشام ثمانية أحمال وترك الباقي ،
وبيع بعضه . وتملك صلاح الدين الأملاك التي لهم ، وملك
بعضها خاصته وأمرائه وأذن ببيع بعضها ، فعفت آثار الفاطميين
بالكلية .

ولما وردت البشائر على الملك العادل نور الدين بالخطبة
في مصر للإمام المستضيء أمير المؤمنين سرّ بذلك وكتب
إلى سائر الأطراف بالبشارة ، وأمر كاتبه عماد الدين الأصفهاني
بإنشاء بشارة تقرأ في سائر البلاد الإسلامية ، وبشارة أخرى
خاصة تقرأ بحضرة الإمام في مدينة السلام . ووصلت البشارة
إلى بغداد ، فقامت الأفراح لعودة الخطبة لبغداد بمصر ،
وقد انقطعت سنة ٣٥٨ هـ ، وعادت ٥٦٧ هـ ، فكانت مدة
الانقطاع ٢٠٩ سنوات .

وأرسل الخليفة يبارك نور الدين ويشكر له في احتفال
مشهور وقلده الإقليمين الشام والديار المصرية . كما أرسل
الخليفة إلى صلاح الدين والأمراء من أصحابه بخلع وهدايا ،
ومعها أعلام ورايات سود وهبات عباسية للخطباء ، ففرقها
صلاح الدين على الجوامع والمساجد والقضاة والعلماء ،
واستقر قدم بني أيوب في مصر ، وثبت لهم الملك فقال في

ذلك عرقله الدمشقي :

أصبح الملك بعد آل علي

مشرقا بالملوك من آل شاذي

وغندا الشرق يحسد الغرب للقو

م ومصر تزهو على بغداد

ما حووها إلا بعزم وحزم

وصليل الفولاذ في الفولاذ

لا كفرعون ، والعزير ، ومن كا

ن بها كالخطيب والأستاذ

وأضحى صلاح الدين حاكم مصر وحده ، وسنه

٣٦ عاما ، فراح يبني ويعمر وينشيء ويجري الإصلاحات

نيتها ، فأنشأ سورا حول القاهرة والفسطاط وقطائع ابن

طولون ، وقلعة حصينة سميت قلعة صلاح الدين ، وبني

فيها دورا لأهله ولنفسه ، وخلف فيها آثارا جميلة تنطق بفضله

وأياديه .

وعمد إلى ذكر اسم السلطان نور الدين بعد اسم الخليفة

المستضيء في المنابر ، وضرب النقود باسم نور الدين ،

وجعل له هدية فاخرة من كنوز الخلافة أرسلها إليه تحببا

ودهاء ، وبعثا للاطمئنان ، وتظاهرا بالطاعة ، وإخفاء لما يكنه من طموح في الاستقلال عنه ، وذرا للرماد في العيون وقطعا للألسنة الخبيثة التي بدأت تعمل في الكيد بين الرجلين والإفساد بين الملكين .

فقد أرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلاد الإفرنج ، والتزول على الكرك ومحاصرته ، ويجتمعان هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة ، وكتب إلى نور الدين أن رحيله لا يتأخر ، وجمع نور الدين وتجهز في انتظار خبر الرحيل ، فلما أتاه الخبر رحل من دمشق عازما على قصد الكرك فوصل إليه ، وأقام ينتظر صلاح الدين . ولكن هذا أرسل إليه يعتذر عن الوصول لاختلال أحوال البلاد . والواقع أن أصحاب صلاح الدين ونخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين ، فقد يدس الحائقون من الضباط على صلاح الدين و يوقعون بين السلطانين .

ومهما يكن من أمر فقد عظم على نور الدين تأخر صلاح الدين وعدم امتثال أمره ، فقرّر دخول مصر وإخراج

صلاح الدين منها خوفا من أن يشتد سلطانه ، وأن يفكر
في الاستقلال عن دمشق ، وقد بسطنا مخاوفه من ذلك
قبل قليل .

« وبلغ هذا الخبر صلاح الدين ، فجمع أهله وفيهم
والده نجم الدين أيوب ، ونحاله ، ومعهم سائر الأمراء ،
وأعلمهم بقصد نور الدين في أخذ مصر منه ، واستشارهم ،
فتفوه بعضهم بكلمات رد عليها أيوب بكلام حكيم قال
فيه : « والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا
إلا أن نترجل إليه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا ،
فإذا كنا نحن هكذا ، فكيف يكون غيرنا . . » وتفرقوا ،
وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر . ولما خلا نجم الدين
أيوب بابنه صلاح الدين عذره ولامه على ما كان منه ،
ونصحه بإظهار الطاعة لثلا يجعله أهم ما يقصده ، فيشتغل
به . وقد صدق الأب الحكيم فقد بلغ نور الدين ما بلغ
فانصرف عن القصد ودرجت الأيام . . . وخاصة حين
عمل صلاح الدين بنصيحة أبيه ، فجمع هدايا كثيرة
وأطافا عظيمة ، من ذخائر وأمتعة وآلات مشمة ، وأوان
وقطع البلور وعقود اللؤلؤ ، والمصنوعات والطيب والعطر ،

وسيرها إلى نور الدين ، وكتب معها كتابا في الطاعة والدعاء بالنصر ، وإظهار الإخلاص ، وخرج بنفسه إلى حرب الفرنجة على الكرك والشوبك ، فنازلهما وأخرب عماراتهما وشن الغارات على الأعمال هناك ، سنة ٥٦٨ هـ .

ووصلت الهدية والرسول ، فلم تقع منه بموقع فائق ، ولكنه أظهر شكره لصلاح الدين ، ورضاه عنه بعد أن قام على حرب الصليبيين ، ونفذ ما طلب إليه ، فقد كان نور الدين يرى أن البلاء عم بالفرنج وينبغي أن تقع المساعدة والمعاونة بالإمداد والمال الكثير لكي يستطيع أن ينفق في سبيل الجهاد .

وفرّح صلاح الدين بهذه النتيجة وسكن باله بفضل الحكمة التي أبدأها أبوه ، فقد صرف عنه بلاء عظيم ووفر عليه حربا لا طائل تحتها ، وجنب المسلمين حربا أهلية بين دمشق والقاهرة ، لا يفيد منها إلا العدو المتربص على السواحل وفي القدس ، فهو يسعى إلى كسر الدولتين واستعمار الإقليمين معا ، ولكنه لا يجرؤ على القيام بذلك ما دام الشعبان معا والدولتان على وفاق ووثام ، فتي وقع الحلف بينهما ضعف كل منهما في الحرب الداخلية ، وأصبح العدو

وحده القوى السليم ، فهجم عليهما وابتلعهما ، وأضاع
استقلالهما واستعبد شعبيهما وأذلها شر إذلال ، وربما
مكث في أرضهما يستغلها إلى عصور لا ينهض من نيره
وعبوديته مصر ولا الشام إلا بعد صبر وبلاء . وحكمة أيوب
هذه درس يروى وعبرة تنقل وصفحة تسجل وسطور تقرأ ،
فهي لأجيالنا وبعد أجيالنا تاريخ عاطر بالصبر والتروى
والعقل والحكمة ، نلوذ بها كلما عرض عارض أو وقع أدر
لحائنا إلى التفاوض ، واطرحنا المناصب والزهو والتفاخر في
سبيل خيرنا ونهضة شعوبنا وبقاء استقلالنا وعزة قومنا ،
وكيد أعدائنا المتربصين بنا . وما أجمل أن نتعظ بها اليوم
وأن نسير على هديها وأن نؤمن برسالتها ، فالوحدة بين
الإقليمين قوة لنا وضعف لأعدائنا ، وهي نور لشعبنا ،
ونار للشعوب المستعمرة ، لنستنير بنور القوة ويحترقون في
نار الحسد والغيرة والخذلان .

ولكن الأسف والأسى أصابا صلاح الدين بعد هذا ،
فقد فاجأه موت أبيه نجم الدين أيوب بعد مرض قصير ،
إذ سقط عن ظهر فرسه وقد تقنطر به ، وكان صلاح الدين
غائبا في بلاد الكرك والشوبك ، فلم يحضر وفاته واشتد حزنه

عليه ، وكان الأب رحيماً جواداً كثير البذل حسن النية ،
 عظيم الرأي شديد الطموح ، مهد لابنه ولأسرته بفضل
 حكمته وصبره وسداد رأيه ، منذ تولى قلعة تكريت وقلعة
 بعابك وقيادة الجند في الشام ، وإمرة القواد في عهد نور
 الدين ، والمشورة في حكم مصر تحت سلطان ابنه صلاح
 الدين ، فكان في مراحل عيشه كلها البطل الشجاع والوفى
 المخلص ، والحكيم العاقل ، ناصر عماد الدين إبان أزمته
 فكان بعيد النظر ، وتخلي عن بعابك فكان فاهماً لحوادث
 التاريخ ، ومشى مع نور الدين مشى الهوينا والصبر في
 سبيل ابنه صلاح الدين فكان له في الأرض وهياً له في ملك
 الشام ومصر جميعاً ، فكان نعم الأب ونعم السيد ، وإليه
 ينسب ملوك بني أيوب جميعاً ، وبه يفخرون وقد رثاه عمارة
 النجاشي فقال فيه :

عدمننا أبا الإسلام والملك والندى
 وفارقنا فرد الزمان ووتره

فلا تعذلونا واعذرونا فن بكى
 على فقد أيوب فقد بان عذره

رعى الله نجماً تعرف الشمس أنه
 أبوها ونور البدر منها وزهره

وأبقى المقام الناصريّ فإنه
لدولتكم كنز الرجاء وذخيره

ونحسر صلاح الدين بوفاة أبيه ركنا ركينا ومستشارا
معينا . وبات خائفا يترقب هجوم نور الدين على مصر
واستخلاصها منه ، فشرع في إيجاد مملكة يقصدها ويملكها ،
لتكون له عدّة في الناثبات إذا ما أخرجه نور الدين من
مصر . فأمضى « قراقوش » إلى المغرب في طائفة من الترك ،
فاستولى على طرابلس الغرب وكثير من بلاد إفريقية حتى
تونس ، وأرسل أخاه توران شاه بن أيوب إلى اليمن فتمكن
من غزوها سنة ٥٦٩ هـ ، وأسر الخارجيّ فيها ، واستخرج
منها الأموال الجليّة ، وأقام بها الخطبة الحباسية ، وسار
إلى عدن فأخذها ، وملك القلاع فيها والحصون وأحسن
إلى أهل البلاد ، وعدل فيهم ، فعمرت وأمنت .

وأراد جماعة من الشيعة الوثوب بمصر وإقامة الدعوة
العلوية وردّها إلى ما كانت عليه ، وكان فيهم عمارة اليمني
الشاعر وغيره من دعاة وجنود من السودان ومصر ومعهم
جماعة من أمراء صلاح الدين وجنّده : وعينوا الخليفة

والوزير ، وتقاسموا الدور والأملك ، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية والشام إلى مصر ، وبذلوا لهم شيئاً من المال والبلاد ، وكان قصدهم أن الفرنج إذا هجموا على مصر خرج إليهم صلاح الدين بنفسه ، عند ذاك يثورون بالقاهرة ويعيدون الدعوة العلوية . فأرسلوا إلى الفرنج ، وقررت بينهم القواعد ، ولم يبق إلا إتمام أمرهم ، ولكن الله قدر أن يفتضح أمرهم ويكتشف سرهم ، فقد دخل معهم في سرهم المواعظ زين الدين بن نجا فاطلع على جميع أحوالهم ، ثم جاء إلى صلاح الدين وأظهره على المكيدة كلها ، فأمره بمخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون ، وتعريفه بالمتخدد من أمورهم أولاً فأولاً ، حتى وصل رسول الفرنج ، فضبط صلاح الدين المؤامرة وأحبطها . وقبض على الخونة ، وفشل الانقلاب كما نقول بلغتنا اليوم . وقام صلاح الدين بإفساده على خير خطة وأحكم وسيلة . وهكذا أمر صلاح الدين بأن يصلب عمارة النمنى مع الجماعة المتآمرين ، وأن يعدم الباقيون ، وذلك سنة ٥٦٩ هـ . وسير صلاح الدين إلى نور الدين بدمشق كتاباً يشرح فيه القضية والخونة ، ويذكر فيه نصر الله وعونه عليهم .

ووصل كتاب صلاح الدين في اليوم الذي توفي فيه
 نور الدين بدمشق ، وقد عزم الرجل على قصد مصر
 فيما علمنا ، واستخلاصها من يد صلاح الدين ، وأرسل
 إلى ولاته يطلب العساكر ليسير هو بنفسه إلى مصر ويجعلها
 تحت رايته خالصة ، يحكمها مع الشام ليضيق الخناق
 على الفرنج ، ويختم بطردهم من البلاد الإسلامية . ولكن
 القدر المحتوم شاء أن يقع نور الدين مريضا في القلعة ،
 وأن يلبث في منزله مشغولا بالنازلة التي نزلت به ، والناس
 في شغل بالعيد والاحتفالات له ، والأطباء يترددون على
 منزل نور الدين بالقلعة ، يشهدون المرض الخطير يفتك
 به ، ويقربه خطوة بعد أخرى إلى الهلاك ، فلا يستطيعون
 ردًا ولا علاجًا ، فقد وقع القدر وحكم القضاء ، وقضى
 نور الدين محمود الشهيد ، يوم الأربعاء حادي عشر
 شوال ، سنة ٥٦٩ هـ ، ودفن بالقلعة مدة ، ثم نقل إلى
 مدرسته التي أنشأها بدمشق ، ودفن بها وقبره بها معروف .
 وقد خلف نور الدين سيرة عاطرة تذكروها الأجيال
 شاهدة على عدله وزهده وجهاده وصدقائه وإحسانه ،
 فقد اجتمع له من الصفات النادرة ما يرفعه إلى مصاف

الملك العظماء ، والساسة الدهاة ، فقد حفظ ملك الشام ،
وأنقذ سورية من خلاف وفوضى ، وحماها من هجمات
الفرنجة الصليبيين فكان درعها العظيم وسيفها المهاجم ،
روع الغزاة المستعمرين ، وحرّمهم طيب الهدوء ، ونغص
عليهم البقاء ، وهدّدهم في حصونهم وبيوتهم ، ففي كل
مدة غزوة ، وفي كل سانحة هجمة ، لا يكاد يتزل عن
فرسه ، وقد ألفه منذ الصبا ولم يفارقه حتى الموت ، يباشر
القتال بنفسه ، ويقول : « طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها » .
فلا يهاب الموت في سبيل الوطن والعروبة والإسلام . وبذلك
وطد أركان الملك ، ومهدّ لفتح مصر وجعلها تحت رايته ،
وجمعها مع الشام في وحدة عظيمة تقاوم الفرنجة ، وتحاربهم ،
فالجيشان جيش واحد تحت قيادة واحدة ، فكان عهده
بركة لسورية ومصر ، وشؤما على الفرنجة والغزاة . وفي مدرسته
نشأ صلاح الدين ، وعلى أخلاقه تربي ، وبمبادئه أخذ .
ولما توفي نور الدين بكى الناس في دمشق وتلهفوا على
أيامه ، واتفق الأمراء بدمشق على ملك ولده الملك الصالح
إسماعيل — وهو صغير السن لم يبلغ الحلم — وكتبوا إلى صلاح
الدين في التعزية بنور الدين ، فهو من أصحابه ونوابه ، ومن

المصلحة أن يستشار فيما يخص المملكة . وقد فعلوا ذلك
 لثلاثا يدخل دمشق ويخرجهم منها . فلما وردت الرسالة
 جلس صلاح الدين للعزاء ثلاثة أيام ، وأقام الخطبة لإسماعيل
 ابن نور الدين ، وضرب السكة باسمه ، وكتب إليه يعزيه
 ويقول له : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة »
 كما قال القرآن الكريم .

واختلف الأمراء والحكام في الشام بعد موت نور الدين ،
 وتولاهم الطمع في الاستيلاء على تركته وملكه ، وكان أكبر
 الأمراء في حلب هو شمس الدين بن الداية ، فأرسل إلى
 دمشق يطلب الملك الصغير الصالح إسماعيل ليكون في
 حلب ، فامتنع الأمراء من إرساله .

ولما بلغ صلاح الدين ما وقع كتب إليهم يذكرهم بأنه
 خير المقربين إلى نور الدين ، وأنه ولاء مصر وهي أعظم
 ممالكه لأنه لم يجد من يقوم مقامه « ولو لم يعجل عليه الموت
 لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري ، وأراكم
 قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني ، وسوف أصل إلى
 خدمته وأجازي كلاً منكم على سوء صنيعه في ترك الذب
 عن بلاده » .

وهجم الفرنج على عاداتهم مستفيدين من فرصة الاختلاف ،
وساروا إلى قلعة بانياس وحصروها ، فجمع ابن المقدم
قائد دمشق عساكره وخرج إليهم ولطفهم ، ثم صالحهم
على المال وعقد الهدنة معهم . فلما سمع صلاح الدين بأمر
الهدنة أنكروها واستعظمها ، وكتب إلى أمراء الشام يقبح
فعلهم ، ويبذل نفسه لمقارعة العدو عنهم . وهو في هذا
كله يتتبع الأخبار ويلتمس السبيل في السير إلى الشام
لممتلك البلاد ، ويجعلها تحت حكمه ، ويوحد الإقليمين
تحت رايته .

وأراد الفرنج أن يشغلوا صلاح الدين عن التفكير بملك
الشام فوصل أسطولهم من صقلية ، ونزل على البر ، فحمل
المسلمون عليهم ، فغرقوا المراكب والمقاتلة ، وركب السلطان
صلاح الدين بعسكره إلى الثغرين الإسكندرية ودمياط ،
فأحرق آلات قتالهم ، وأوسع القتل فيهم ، واقتحم عليهم
البحر فولت المراكب هاربة ، وصار العدو بين قتيل وأسير
وغريق ، وأخذ المسلمون من الأسلحة والمتاع والآلات
ما لا يملك مثله ، وأقلع الأسطول الفرنجي عن الثغر في
مستهل المحرم سنة ٥٧٠ هـ .

ولما انتهى صلاح الدين من الفرنجة ، تلفت إلى الشام ،
وأنكر على الأمراء نقل الملك الصالح إلى حلب ، وأطماع
الفرنجة بالبلاد ، وتفريطهم بحقوق الوطن وبذل القطاعات
للغزاة ، فقال :

« أنا أحقّ بتربية الملك الصالح رعاية لعهد والده ،
ولو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة وطمعت
الكفار في البلاد » .

وكتب إلى أمير دمشق شمس الدين ابن المقدم يخبره
بما هو عازم عليه في جمع الشمل ، ودفع الضرر ، وحماية
البلاد . فوفدت عليه رسل الشام تستحثه على سرعة الحركة ،
وتصريف الأمور ، وتخليص الشام من الفوضى ، فالطفل
الصغير لا يستطيع أن يحمي الحمى أمام هجمات الفرنجة ،
وخيانة العملاء .

فسار صلاح الدين إلى دمشق في مستهل صفر من
سنة ٥٧٠ هـ ، ووصل إليها ، فدخلها ، ووصل إلى دار
أبيه المعروفة بدار العقيق ، وكانت دارا في القرن الرابع
الهجري لمندوح الشاعر الغساني المعروف بالأواء الدمشقي .
وأدرك الأمراء أن الشام غدت لصلاح الدين وأن الدولة

النورية قد انتهت ، وأن عهدا جديدا قد بدأ ، هو عهد
صلاح الدين وحكمه ، وعرفوا أن هذا الشاب الصلب
سيمسك بيد من حديد ملك الشام ومصر ، وهو يزحف
نحو الأربعين من عمره .

القسم الثاني

السلطان المستقل عن مصر والشام

الفصل السادس

إخضاع الشام

٥٧٠ هـ - ٥٧٢ هـ

دخل السلطان الناصر صلاح الدين دمشق ، ولم يكده يستقر بها حتى استخلف أخاه طغتكين عليها ، وسار إلى حمص وتسلمها . ثم سار إلى حماة فتسلم المدينة ، وأرسل حامى القلعة رسولا إلى حلب يدعوهم إلى اجتماع الكلمة فى طاعة الملك الصالح ابن مولاة نور الدين . ثم مضى بنفسه إلى حلب فحاصرها وقاتلها أشد قتال . وركب الملك الصالح بحلب وهو صبى عمره اثنتا عشرة سنة يستصرخ الناس ويذكركم بأبيه ، وأنه يتم جاء إليه « صلاح الدين » الجاحد إحسان والده ليأخذ بلاده ، فبكى وأبكى الناس ، فبذلوا له الأموال والأنفس ، واتفقوا على القتال دونه . فرأى صلاح الدين أن يعود عن حلب ، وأن يكتب إلى الخليفة ببغداد فى نصرته .

وأرسل صلاح الدين إلى الخليفة رسولا يحمل إليه رسالة يعدّد فيها ما كان له من مساع في خدمة الدولة العباسية ، ومن جهاد ضد العدو ، في أيام نور الدين . وأنه فتح مصر واليمن والمغرب وأقام فيها الخطبة العباسية ، وأنه لم تخل سنة له من غزو الفرنج برّا وبحرا . ثم يذكر فيها تشتت بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ، وطمع العدو فيها لاختلاف الآراء . وأنه إن لم يفتح القدس ، قوى العدو وتمدّد في البلاد ، واتسع على المسلمين الخرق . وذلك لأنه لا يستطيع جهادهم من مصر لبعده المسافة بينه وبينهم ، وقد قدم الشام لإصلاح الأمور وحفظ الثغور ، وخدمة ابن نور الدين وكفالاته ، وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه ويبالغون في ظلمه . ثم طلب من الخليفة تقليدا جامعا بمصر والمغرب واليمن والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية .

وهذه الرسالة تبين عن أهداف صلاح الدين ومطامعه ، وتعدّد أيادي صلاح الدين ومناقبه ، تكاد تكون وثيقة هامة كتبها القاضي الفاضل ، وعبر بها أحسن تعبير . فأجابه الخليفة المستضيء إلى ملتمسه وأذن له في كل ما طلب .

واعترف لصلاح الدين جميع المسلمين ، وأنهالت النجيدات
عليه من كل صوب ، وغدا السيد المطاع ، والحاكم
العظيم ، والملك الهمام يجمع سورية ومصر ، واليمن وأفريقية .
وهو أوسع ملك كان تحت إمرة سلطان لذلك الزمان ،
فأسقط الخطبة للصالح وجعلها باسمه وحده .

ولا شك في أن هذا الملك الواسع يكلف صلاح الدين
هنا كبيرا وسعيا كثيرا ، وغزوات تتابع ، ومعارك تتصل ،
فهناك فجوات وثغرات ، واختلال في بعض النواحي وضعف
في بعضها الآخر ، والصليبيون بالمرصاد يغيرون من كل
جانب ، ويهجمون من كل طرف ، لذلك كثرت أخباره
وتشعبت آثاره وتنوعت أياديه مما لا يحصيها كتاب وإن طال .
ولكننا سنجتزئ على المهم ، ونبسط ما يتصل بشخص
صلاح الدين نمر به مسرعين من غير تفصيل أو إسهاب .
لقد سار الناصر صلاح الدين وراء القلاع والحصون
يستخلصها من المتنفذين السالبيين ، فاستولى على قلعتي
حمص وبعلبك ، ثم جاءته الرسل من الحلبيين تطلب الصلح
على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها ،
فأجابهم إلى ذلك ، واستزاد منهم المعرة وكفر طاب وانتظم

الصلح ، ووقعت الأيمان ، ورحل من حلب ، وعاد إلى دمشق ، ولكن الحلبيين نقضوا العهد ، فكتب السلطان إلى أخيه ونائبه بمصر وهو الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، يأمره بأن يجمع العساكر للاستعداد والخروج إلى حلب .

وسار الناصر بالعساكر متوجها إلى حلب ، وجاءه الخبر أن الحلبيين والمواصلة في عشرين ألف فارس ، وأنهم موعودون من الفرنجة بالنجدة ، وأمدادهم متواصلة ، ولم يكن اجتمع من عسكر السلطان سوى ستة آلاف ، فرتب عسكره ، وأطلق الحلبيون من في الأسر من ملوك الفرنج ومنهم أرنو (أرناط) صاحب الكرك وجوسلين خال الملك ، فلم يرهبه الأمر ، وقد عرف ضعف الحكم وميلهم إلى الخيانة حين يخافون على كراسي الحكم فيتواطئون مع الأجنبي المستعمر ، وقد خبر ذلك بنفسه ، ورأى منهم في مصر مثلما يرى في الشام ، فأكثرهم لا يخافون في الوطن ضميرا ، ولا يعرفون للكرامة ثمنا ، وإنما يبيعون الدنيا الزائلة بالآخرة الباقية ، فيرتزقون كما ترتزق أخط الحيوانات بالسلب والنهب والعدوان . ولذلك لم يعجب لاتفاق هؤلاء القواد

والحكام من المسلمين مع قواد الفرنجة وحكامهم ، وسيرهم في جيش واحد لقتل إخوانهم حكام المسلمين وقوادهم في الجنوب ، وإسالة الدماء البريئة من المواطنين الأبرياء في سبيل العروش والوزارات ، بدلا من بذلها ضد الفرنجة المغيرين .

ولهذا صمم الناصر على قتالهم لمعرفة بنفوسهم المريضة وتكالبهم على المادة ، وأنهم لا يقاتلون في سبيل المبادئ ، فما إن وقف لهم حتى تهاووا كالفراش حول النار ، وسقطوا صرعى وأسرى بين يديه ، ومع ذلك من "عليهم السلطان بالحياة والحرية وأطلقهم لعلهم يشفون بعد اليوم من مرض قديم ، فهو لا يرجو تأديبهم وإنما يسعى في حماية البلاد منهم ومن أعدائه ، فلم يشأ أن يشحن فيهم وإنما أراد أن يقربهم منه . وضرب الناصر صلاح الدين مثلا رائعا في حرب العقيدة ، فانتصر جيشه في ستة آلاف على جيش المرتزقة في عشرين ألفا ، وذلك في موقعة تل السلطان ، سنة ٥٧٠ هـ .

وعلى أثر هذه الانتصارات استولى صلاح الدين على البلاد الكثيرة فأخذ منبج وبزاعة وعزاز وغيرها ، ولم يخل

من مآزق عسيرة مرّ بها ، فقد أرسل قائد حلب أحد الثائرين لقتل صلاح الدين والحلاص منه ، وكاد الناصر يقتل أول مرة ولكن الله سلم . ثم إن كمشتكين وجه شيخ الجبل راشد الدين سنان للفتك بصلاح الدين ثانية ، ولكن السلطان عرف المؤامرة هذه المرة فقبض على سنان ورجاله وأعدمهم . وهذا يدلّ على أن السلطان كان لديه جهاز واسع للمخابرات والمباحث تحافظ على حياته وتستقي الأخبار له ، في مصر وسورية . لذلك لما وصل الناصر إلى بلد الباطنية سنة ٥٧٢ هـ ، حاصر حصنهم مصياف ، وأوسعهم قتلا وأسرا ، وساق أبقارهم وضرب ديارهم ، كما هجم على الفرنج حين أغاروا على البقاع فقتل منهم وأسر أكثر من مائتي أسير ، ثم عاد إلى حماة وقد استكمل الظفر .

ووصل توران شاه أخو الناصر لخدمة أخيه في دمشق ، فسار إليه ليجتمع به في حماة ، وتعاثقا في المحيم ، وسر السلطان بلاقائه سرورا عظيما ، وسارا معا إلى دمشق ، فأنابه عنه فيها وعزم على العودة إلى مصر . وقبل العودة تزوج السلطان صلاح الدين بعصمة الدين خاتون بنت الأمير معين الدين أنر ، التي كانت زوجة نور الدين . ثم سار إلى مصر .

الفصل السابع

في معارك الصليبيين

٥٧٢ هـ - ٥٧٨ هـ

أناب صلاح الدين أخاه الملك المعظم توران شاه بدمشق ، وخرج من دمشق إلى القاهرة . فلما استقر بداره فيها ، أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة التي على جبل المقطم ، وهو سور طويل . وشرع في بناء القلعة وقطع الخندق وتعميقه وحفر واديه ، وتضييق طريقه . وأنشأ العمارات بالقلعة ، وبني الدور السلطانية وسكنها ، ولم يسكنها أحد قبله من أهل بيته ، وإنما كان سكناهم بدار الوزارة ، ثم استمرت السكنى بالقلعة بعد ذلك . ثم أمر ببناء المدرسة التي عند قبر الإمام الشافعي ، كما أمر باتخاذ دار في القصر بيارستانا للمرضى ، ووقف عليه وعلى المدرسة وقوفا .

ثم صحب ولديه الأفضل نور الدين والعزیز عماد الدين

وسار بهما إلى ثغر دمياط و ثغر الإسكندرية ، وتردد إلى الشيخ السلفي في كلّ جمعة ثلاثة أيام ليسمعهما الحديث النبوي . وعاد بعدها إلى القاهرة يجلس نهاره لنشر العدل وإفاضة الجود وسماع حديث النبيّ - صلعم - وإشادة قواعد الشرع الإسلامي . وخرج ثانية عن القاهرة إلى « مرج فاقوس » من الأعمال الشرقية ، وخيم به لإرهاب الفرنج ، ولأزم الركوب للصييد والقنص .

وقد عرف الفرنج برجوع صلاح الدين إلى مصر ، فزحفوا بجيشين أحدهما صوب الشام والثاني صوب بعلبك ، ونهبوا وسلبوا ، وخرّبوا القرى ، وأسروا كثيرا من المسلمين ، فنهض إليهم الناصر ، ورحل بعساكره على عسقلان فسبا وغنم ، وجمع من كان معه من الأسرى فضرب أعناقهم ، ثم زحف بجيشه القليل في فلسطين حتى بلغ الرملة ، فهجم الفرنج عليه وأوغلوا في الضرب والقتل ، وانكسر المسلمون كسرة عظيمة ، ونجا السلطان نفسه بأعجوبة ، وأسر الأمراء والقضاة ، وكان وهنا عظيما وإنكسارا مشينا سنة ٥٧٣ هـ . وأراد الناصر أن ينتقم لجيشه ، فأعدّ جيشا قويا هذه المرة خلال ثلاثة أشهر ، ثم رحل عن مصر ، ووصل إلى دمشق

بجيشي مصر وسورية ، وأقام فيها يدير المعارك . وأرسل
أنحاه توران شاه إلى مصر ومعه من ضعف من الأجناد
لأنها كانت سنة جلدب شديد في الشام .

وكان يغاور القلاع والحصون فطورا يقصد حصن
الأحزان وهو على يوم من دمشق ، فيأسر ويغنم ، وطورا
يسير إلى بانياس ويخيم على حدود بلاد العدو ، كما يخيم
جنودنا الآن على حدود إسرائيل ، فالدويلة المسخ هي
الدويلة التي كان الفرنجة يحتلونها على حدودنا منذ قرون ،
وقد طردوا منها ليعودوا إليها ثانية في القرن العشرين . وطورا
يركب بحجة الصيد فيجرد العساكر وقبائل العرب إلى صيدا
وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو ، وما يبرح مكانه
حتى يعودوا بجمالهم وأحمالهم حتى نخفّ زرع الفرنج .
ثم أجمع رأى السلطان ومن معه على أن يقتحموا على
الفرنج بلادهم وأن يستوعبوا ما بقي في أيديهم من الغلات
في يوم واحد ، ثم يرجعوا ، فرحلوا صوب البقاع ليلة
المحرم سنة ٥٧٥ هـ ، فلما أصبحوا التقوا بالفرنج ، فأسروا
فرسانهم وشجعانهم ، ووقع من الصليبيين كثير من المقدمين
والأمراء ما يزيد على ٢٧٠ شخصا ، ونقلوا إلى دمشق .

وكانت عدة العدو عشرة آلاف مقاتل ، وانهزم ملكهم
مجروحاً .

وقصد السلطان وصحبه كذلك إلى حصن بيت الأحزان ،
لتخريبه ، وكان برجاً محكم البناء ، فنقبوه وأسروا من كان
فيه ، وأطلقوا أسارى المسلمين ، فطلب الفرنجة الأمان
ونخسروا بهدم هذا البرج موقعا حصينا استراتيجيا مهما .
كما قصد السلطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت فأغار
عليها وأرجف القلوب ، ثم عاد إلى دمشق ، فهناك الشعراء ،
وطارت البشرية إلى سائر الأمصار بهذه الفتوح الجليلة ،
وسار ذكر الناصر في كل مكان وتعلق به أهل الشام كما
تعلق به أهل مصر ، وعرفوا أنه حامي العروبة والإسلام ،
وأنه المجاهد المخلص ، والمحارب المناضل ، وأن على يديه
خلاص البلاد الإسلامية ووحدتها ، وطرده الفرنجة وقتل
آخر واحد منهم .

وما يكاد السلطان يفرغ من حرب إلا ليباشر حرباً
أخرى ، في الجنوب أو في الشمال ، فهو ضد الصليبيين
حول الساحل بالجنوب ، وهو في بلاد الأرمن لقمع ملكهم
ابن لاون بالشمال ، يحرق القلاع ويأسر الفرسان ، ويحوى

الغلات ويملك الآلات ، ويذل العتاة المعتدين ، ويعود مؤيدا مظفرا منصورا سنة ٥٧٦ هـ .

وما يعود إلى دمشق إلا ليسافر إلى القاهرة . فينتقل بين الإقليمين ويشركهما بحبه وعطفه ورعايته ، يبني هنا ويبني هناك ، ويشرف على الجوامع والمدارس بالشام كما يشرف عليها في مصر ، يستخلف أفراد أسرته نوابا عنه . وقد أراد أن يسير إلى مصر ، فاستتاب بدمشق ابن أخيه عز الدين فرخشاه ، بعد أن توفي أخوه توران شاه ، فاستقبله في القاهرة نائبه الملك العادل سيف الدين وهو أخوه . وما كاد يقر قراره فيها حتى جاءه النبا بأن (أرنو) ملك الكرك جمع عسكره ، وحدثته نفسه بالمسير إلى المدينة المنورة للقضاء على الإسلام ، فلما سار هجم فرخشاه على بلده فنهبه وخربه ، وطال اشتباك الطرفين ، فتفرق جمع الصليبيين وعادوا عن قصدهم ، وحمى الله الحرمين من غائلتهم .

ثم جاءه نبا آخر بأن ملك حلب إسماعيل بن نور الدين قد مات ، وأن عز الدين مسعود قد استولى عليها ، فندم السلطان على نزوحه من دمشق ، وقرر أن يعود إليها

ليكون على مقربة من الأحداث الجسام في الشام ، فهي
تتمخض أبدا بالأنباء والأخبار والحوادث لا تكاد تهدأ
ولا تستقر ، وعلى الحاكم أن يسهر ليله ونهاره في تتبع أحوالها
وتسقط أخبارها ، لا يفارقها لحظة ، فكأنها مهد النشاط
الدائم وموضع العمل المستمر ومصر بالنسبة إليها أشد هدوءا ،
وأعظم إخلادا إلى الأمن والراحة والاستقرار .

ولذلك برز السلطان الناصر من القاهرة ، وخرج
الناس لوداعه ، ومن عجيب ما ذكر ابن واصل في الاتفاق
والمصادفة أن السلطان بينما هو في سرادقه ، والعلماء والفضلاء
عنده ، وكل منهم ينشد بيتا أو أبياتا في الوداع ، إذ أخرج
أحد مؤدبي أولاده رأسه ، وأنشد :

تمتسع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عسار
فخمد نشاط السلطان ، وانقبض انبساطه ، وجعل
الجماعة ينظر بعضهم إلى بعض ، متعجبين من سوء أدب
المؤدب .

ولكن الله يشاء أن يكون هذا الشيخ المؤدب ناطقا
بلسان الغيب ، فإن السلطان فارق الديار المصرية هذه
المرة ولم يعد بعدها إليها أبدا ، فسكن دمشق وأقام بها

آخر نفس من أنفاسه .

وهكذا سار السلطان متوجها إلى دمشق لحمس مضين من المحرم سنة ٥٧٨ هـ ، وجعل طريقه على العقبة . فلما بلغها سمع باجتماع الفرنج في الكرك لقطع الطريق ، فاحترز ، ثم سار في شجعان أصحابه على سمت الكرك . وخرج فرخشاہ من دمشق آنذاك واغتم نخلو ديارهم فأغار على طبرية وعكا ، ورجع بالغنائم ، وجاءت البشرى إلى السلطان بهذا ، فسار حتى وصل إلى دمشق لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر من هذه السنة . وهكذا كانت الطريق بين دمشق والقاهرة محفوفة بالمكاره والمصاعب يسدها عقارب الإفرنج ويملؤها قراصنتهم في القرن السادس للهجرة كما يملئونها اليوم بثعالبهم من الصهاينة في القرن الرابع عشر للهجرة فما أشبه الليلة بالبارحة .

الفصل الثامن في الشام والحزيرة

٥٧٨ هـ - ٥٨٢ هـ

عاد السلطان الناصر إلى الشام ليستأنف حروبه ضد الفرنج على مقربة من حدودهم ، فقد أخذ ملك الشام لهذا السبب ، وكأنه أراد أن يخلف نور الدين في سيرته وفي جهاده وفي خططه وأعماله ، فكان منه في موضع التلميذ والمقلد أول الأمر ، ثم فاقه في كثير ، من حيث الحرب والقتال والنهوض إلى الحصون والثغور ، يقاتل الأعداء من بني قومه والأعداء من الأوربيين ، ولا يستطيع أن يجهز على هؤلاء أو هؤلاء ، فالوضع في الشام غريب عجيب ، فقد نشأ في داخل البلاد خلايات أجنبية تعين على الدسائس والتفرقة وتقرب الثائرين ، فهي بذلك تحارب سرًا ، ثم تنقض في الفينة بعد الفينة كلما استعادت قوتها وجمعت جموعها وبلغتها الإمدادات وزالت عنها أسباب الخلاف

فعند ذاك تحارب جهرا . ولا سبيل إلى الحرب على جبهتين
كما تقول تعابيرنا اليوم ، ولذلك كان موقفا صلاح الدين
ونور الدين قبله موقفاً عسيرا .

وعلى هذا وصل الناصر ٥٧٨ هـ فهب لساعته في الإغارة
على طبرية وبيسان ، والتحم في القتال ، وكان النصر له
ولأصحابه وعاد مظفرا على الفرنجة . ولكنه سار بعد ذلك توجهاً
إلى حلب حين علم أن المواصلات كاتبوا الفرنج ورغبتهم في
قصد الثغور الإسلامية ليشغلوا السلطان عن قصدهم ،
فتوجه في طريقه إلى بعلبك حيث قضى سنين عزيزة من
صباه بقرب أبيه ، حين كان حاكماً لها ، ونхим بالبقاء ،
وقد واعد أسطول مصر أن يتجهز إلى بيروت فعلم أنه وصلها
ولكن أمره يطول ، فأعاد ابن أخيه إلى دمشق ليضبط
مكانه ، وسار إلى حمص فحماة ، وقرب من حلب ثم
رحل يطلب الفرات ، فوصلها ونхим عليها ، ثم راح ينازل
الثغور ، فملك نصيبين وزحف على الموصل ، وسنجار ،
وتواترت الأنباء بأن الفرنجة قصدوا دمشق ونهبوا قراها ولكنه
لم يشأ مغادرة المواقع الشمالية للشام .

فتابع حروبه ضد آمد وميفارقين ، وانحدر إلى حلب

فنازلها سنة ٥٧٩ هـ ، ثم سلمها ، ورحل عنها إلى دمشق ،
وتهيأ للقاء الفرنجة . فخرج لقتالهم ونال منهم وخرب قراهم
وعاد إلى دمشق . ثم سار إلى الكرك فحاصره ورماه بالمجانيق ،
فخرب ديارهم وأخذ أموالهم وعاد . وسار ثانية إلى الكرك
سنة ٥٨٠ هـ ، ورماهما فهدم السور ، وأراد أن يطم الخندق
ولكنه عاد عن ذلك بعد أن شغلته التجديدات القادمة ،
وقصد نابلس وفتحها .

ونريد أن يقف القارئ على هذا الانتقال من بلد إلى
بلد ومن حصن إلى حصن ، وأن يتابع المسافات التي كان
يجتازها هذا البطل بجيشه من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب
إلى الشمال ، وهي مسافات شاسعة في أراض وعرة المسالك ،
تعسر على المسافر اليوم رغم الوسائل الحديثة ، ووسائط
الانتقال فكيف بالمحارب في ذلك الزمان ، والمهم أن الناصر
كان لا يستريح من غزوة وهجمة إلا ليستأنف غزوة جديدة
وهجمة جديدة خلال شهور متقاربة ، لا يرده الانكسار
ولا يبطره الانتصار ، كأنه موكل بالجهاد كل أيامه .
فهو ما كاد ينتهي من معارك فلسطين حتى رجع
ثانية إلى أقصى الشمال بالشام وسافر إلى حمص وحماة ،

وانتقل بعدها إلى حلب مطلع سنة ٥٨١ هـ فبادر إلى قطع
 الفرات ثم وصل إلى حرّان ، فرأس عين ، ثم نصيبين ،
 وقصد إلى الموصل ، وكان الحرّ شديدا جدا ، ودخل شهر
 رمضان ، فأصابه مرض عضال أزعبه وأقلقه ، ولعل ذلك
 لشدة الجهد ومتابعة القتال ونحوض المعارك ، والدخول في
 الانكسار والانتصار ، وعمره ٤٩ سنة ، فرحل عن الموصل
 وهو في شدة المرض ووصل إلى حرّان ، ويشس الناس من
 شفاء السلطان ، ولكنه عوفي بعد ذلك ، وتم الصلح بين
 المواصله والسلطان . ورحل إلى دمشق فدخلها في ربيع
 الأول ٥٨٢ هـ .

وهذه الحروب في شمالي الشام مهدت للسلام والأمن ،
 وأخضعت البلاد لرايته ، فخلصت الشام والجزيرة لحكمه ،
 وأصبح لا يفكر إلا بطرد الفرنجة من البلاد الإسلامية
 جمعاء ، وذلك بإعلان الجهاد المقدس .

الفصل التاسع

موقعة حطين

٥٨٣ هـ

أقام السلطان الناصر بدمشق بقية سنة ٥٨٢ هـ ،
ثم عزم على الجهاد المقدس وطرده الفرنجة نهائيا ، فأرسل
إلى سائر الأطراف يطلب العساكر ، فجاءته من كل فج ،
ولبث يفكر في خطة لانتزاع الولايات المسلووبة ، فقد علم أن الفرنج
متنابدون متقاتلون ، يكره بعضهم بعضا ، وأن ربح الانقسام
قد دبّ بينهم ، وأن كل واحد كان يغير شخصا في سبيل
ربح مادي أو في سبيل غاية دنيئة ، فقد انحطت أخلاقهم
وسفلت طباعهم وابتعدوا عن روح الفروسية ، فقال المؤرخ
فشر يصف حالهم آنذاك ، على ما في قوله من ظلم للشرق والعرب :
« ولم تلبث روح الصرامة التي امتاز بها الصليبيون
أن وهنت تحت السماوات الدافئة ومغرياتها ، بعد أن
استهوت النساء الشرقيات والأطعمة الشرقية أولئك المغامرين ،

وبعد أن خففت حياة الشرق من خشونتهم وتعصبهم ،
 إذ وجدوا بالشام مجتمعا غريبا عليهم كريها إلى حد ما ،
 بنسائه المكنونات في الحجاب ، ولكنه من نواح كثيرة
 مجتمع أكثر وجاهة وثقافة مما عهدوا في بلادهم ، فتولدت
 بين الكثيرين من زعماء العرب والصليبيين أنواع الصداقات .
 وهدأت شجاعة المسلمين ودمائهم من ثائرة التعصب الديني
 في قلوب المسيحيين » .

وفي هذا القول جانب من الحقيقة في وصف المقاتلين
 الفرنجة ، فقد فسدت خطتهم ، ولم ينجهم من الطرد
 خارج البلاد الإسلامية إلا تقاتل الأمراء المسلمين وتنازحهم
 وتقاطعهم واستقلالهم بعضهم عن بعض ، واستنجادهم أحيانا
 بالصليبيين كما رأينا في مصر والشام . وكان أشد خطر
 يواجههم هو خطر الوحدة بين الممالك الإسلامية ، وسير
 هذه الممالك تحت راية موحدة ويد قوية عاقلة مخلصه .
 فلما بلوا من أخلاق صلاح الدين بمصر ما بلوا منه في
 الشام ، ورأوا أن الرجل في سبيله إلى أن يستتب له الأمر
 في جمع القطرين وتوحيد الجيشين صاحوا بالويل والثبور ،
 وحسبوا أن أيامهم غدت معدودات .

وكان صلاح الدين يعرف سبب البلاء في الشرق وسبب الكارثة التي ابتليت بها الشام فأراد أن يحسم الداء بسيفه فسلطه على بقاع الشام ووحدها أول الأمر ، وخضعت له من أقصى الشمال حتى العراق إلى أقصى الجنوب حتى النوبة ، وأصبح لا يرى هما له إلا طرد الغزاة وإخراجهم . وصادف أن اعتدى صاحب الكرك (أرنو) على قافلة عظيمة من المسلمين فيها نعم جليلة ، فأخذها بأسرها ، وأسر الأجناد وحملهم إلى الكرك ، وسام المسلمين سوء العذاب والتنكيل ، وكانت بينه وبين السلطان هدنة ، فغدر ونكث ، وأصر على العصيان والفظائع ، فنذر السلطان دمه وأعطى الله عهدا إن ظفر به أن يستريح مهجته ، وأقسم الأيمان على أن يقبض على (أرنو) ويقتله .

وهكذا خرج من دمشق وأقام معسكره على (بصرى) ووصل جيشه من مصر وعسكر إلى جانبه ، فسار إلى الكرك ونازلها وقطع ما حولها من الشجر ، وأفسد زرعها وكرومها ، ثم سار إلى الشوبك ، ووصلته بقية الجيوش الإسلامية ، وقد غص بها الفضاء ، وعرض العسكر فكان في اثني عشر ألف مقاتل ، ثم رتب العسكر ، وسار يوم

الجمعة ١٣ ربيع الآخر من سنة ٥٨٣ ، وأحاطت عساكره
ببحيرة طبرية ففتحها في ساعة من نهار ، وامتدت الأيدي
بالنهب والأسر والحريق والقتل .

وأعدّ الفرنج جيوشهم وحشدوا جموعهم . وجاءهم
الأمداد من سائر البلاد الساحلية ، فكانوا في خمسين ألفا ،
وزحف الجانبان والتقى العسكران على سطح جبل طبرية
الغربي ، وحال الليل بين الفئتين وباتا على مصاف إلى
صبيحة الجمعة ٢٤ ربيع الآخر ، فركب العسكران وتصادما
إلى الليل . ثم كان السبت وقد حاز المسلمون ماء البحيرة
ومنعوها عنهم ، فاشتد بهم العطش ، وفرغ ما معهم من
الماء ، وأخذتهم سهام المسلمين وكثر فيهم الجراح ، وقوى
الحر ، وسلبهم العطش القرار ، وصاروا كلما حملوا ليتيسر
لهم ورود الماء صدّوا وردّوا ، واستولى عليهم الأسر والقتل ،
فأووا إلى جبل « حطين » ليعصمهم من البلاء بعد أن انهزم
منهم طائفة ، فتبعتهم طائفة من المسلمين ، فلم ينج منهم أحد .
وهرب بعضهم إلى صور ، ولكن المسلمين أحاطوا
بالباقين الذين احتموا بجبل حطين — وهي قرية عندها قبر
شعيب النبي عليه السلام وضايقوهم ، وأشعلوا حولهم النار ،

وحرّ العطش وألم الجراح ، وخطوا خيامهم على ظهر التل ،
 فعاجلهم المسلمون عن ضربها ، واشتد الطعن والضرب ،
 ودارت عليهم دائرة السوء ، وعلموا أنه لا ينجيهم من الموت
 إلا الإقدام على الموت ، فحملوا على المسلمين ، ولكن الله
 ثبت أقدام المسلمين ونصرهم ، فأثخنوهم بالقتل والجراح
 والأسر ، ووهنوا وهنا عظيما ، وأيقنوا بالبوار ، وبقي ملك
 القدس على التل في ١٥٠ فارسا فحسب . وما زال المسلمون
 يضربون الخيمة حتى سقطت ، وأسروا كلهم .

وهنا نزل السلطان عن فرسه ، وسجد لله شكرا ،
 وبكى من شدة فرجه ، لأن البلاد الإسلامية لم تشهد يوما
 كيوم حطين منذ ملك الفرنج البلاد الساحلية ، ولم تعرف
 المعارك شدة وهولا ونصرا وظفرا كتلك المعركة التي أدارها
 الناصر صلاح الدين . فقد كان الفرنج ألوفا فلم ينج منهم
 إلا آحاد ، وامتألت الأرض بالأسرى والقتلى .

وأمر السلطان فضربت له خيمة ، فتنزل فيها ، وأحضر
 ملوك الفرنجة ومقدميهم ، وأجلس ملك القدس « كى »
 إلى جانبه ، وأجلس البرنس إلى جانب الملك ، وفي نفسه
 وفاء نذره بقتله ، جزاء غدره ومكره ، فقرعه السلطان

وأذكره بذنبه ، وقال له : كم تحلف وتنكث ؟ فقال
الترجمان عنه : إنه يقول : قد جرت بذلك عادة الملوك .
ولكن الناصر آنس الملك وحادثه ، وأمر له بشراب
مثلوج فشربه ، وكان قد بلغ منه العطش مبلغا عظيما ، ولما ارتوى
ناول البرنس (أرنو) القدح ، فشربه ، فقال السلطان
للملك : لم آذن لك في سقيه الماء حتى لا يوجب ذلك أمانا له .
ثم سار الجميع إلى مكان ضربت فيه السرايق ،
واستحضر السلطان الملوك ، ولم يبق عنده أحد سوى الخدم ،
فأقعد الملك وجماعته في الخيمة ، واستحضر (أرنو)
خاصة ، وأذكره قوله لما غدر بالقافلة الموجهة من الديار
المصرية إلى الشام . ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل .
فسلّ الناصر خنجره وضربه به ، وأجهز عليه من حضر من
الخدم ، فسحب وأخرج من الخيمة ، فلما رأى الملك ذلك
خاف وظن أن دوره بعده ، فطيب السلطان قلبه وقال له :
« لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك . وأما هذا فتجاوز
حدّه فجري عليه ما جرى » .

ثم جمع السلطان الأسرى ، وبعث بهم إلى قلعة
دمشق ، وأمر أن يحتاط عليهم . وبات الناس ليلة الأحد

على أتم سرور ، ترتفع أصواتهم بالحمد والدعاء ، والشكر
حتى طلع الصبح ، فتوجه السلطان إلى طبرية ، ونخم بها ،
وتسلم الحصن من صاحبه . ثم أمر بقتل (الداوية والاسبتارية)
وهم من المتعصبة المعتدية ، وسير السلطان الملك الأسير
وأخاه ، وصاحب جبيل ، وجميع الأكابر إلى دمشق .
وفرق بقية السبي بين الناس ، فتصرفوا فيه ، وبيع في جميع
البلاد الإسلامية .

✧ وموقعة حطين كانت خيرا وبركة على صلاح الدين
والجيوش العربية ، وكانت مفتاح الفتوح الإسلامية كما
يقول ابن واصل ، وبها تيسر فتح بيت المقدس كما نرى
بعد قليل .

✧ وستظل هذه الموقعة بين سمع التاريخ وبصره تروى
بطولة الشرق وعظمة العرب وشدة الإسلام ، فقد تغلبت
قلة على كثرة ، لأن القلة أصحاب حق وسكان الوطن ،
ولأن الكثرة أصحاب باطل وهم معتدون . وإلا فكيف يغلب
اثنا عشر ألف فارس خمسين ألفا في عقر دارهم وقرب
حصونهم وفي أرض سكنوها منذ زمن ، وتكاتفوا من كل
قطر ، ووفدوا من كل بلد غربي لاحتلالها واستعمارها ،

ظانين أن القوة مع الباطل توصل إلى النصر ، وأن العدوان
سبيل إلى الفوز .

.. ولذلك هزت حطين أركان الفرنجة والصليبيين ، فلم
يكونوا ينتظرون انكسارا كهذا الانكسار ، يمحوا الجيش ،
ويذل المحاربين ، ويقضي على أكبر كتلة مهاجمة في
ذلك الزمان .

الفصل العاشر

الفتوحات العظيمة

٥٨٣ هـ

انتصر صلاح الدين في حطين يوم السبت ٢٥ ربيع
الآخر ، وبعد أيام رحل إلى « عكا » فوصلها في آخر
الشهر ، لم يكد يستريح من معركة فاصلة وحرب طاحنة ،
وأشلاء وضحايا ، وقتلى وأسرى . فهو لا يعرف القرار والهدوء
كأنه ولد للحرب والنضال والدفاع عن بلاده والقتال ضد أعدائها .
وبلغ تل « عكا » مستهل جمادى الأولى ، يوم الخميس
ووقف بإزاء التل مصمما على الزحف ، وبينما هو يرتاد موقعا
للتزال إذ خرج كثير من أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان ،
فخيرهم بين الرحيل والإقامة فاختراروا الرحيل خوفاً من المسلمين
بعد الذى سمعوا عن حطين ، وحملوا أمتعتهم وتركوا المدينة ،
فدخلها المسلمون يوم الجمعة ثاني جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ ،
وأنقذ أسرى المسلمين بها وكانوا أربعة آلاف نفس .

وأقام السلطان مخيمًا على التل بباب عكا ، وفرق عسكره إلى البلاد المجاورة لعكا ، فاحتلوها ونهبوا ما فيها ، فامتلك الناصرة وقيسارية ، وحيفا ، والطور ، ونابلس وقلاعًا كثيرة . ثم حاصر تبين فتسلمها ، وسار إلى صيدا فاستسلمت ، وإلى بيروت فأخذها وذلك في ٢٩ جمادى الأولى ، كل ذلك خلال شهر كامل ، كانت الحصون فيه ترسل رايات الأمان كلما لحت جيوش السلطان ، فقد ذاق الفرنجة طعم الذل على يديه وبلغ ذلك أسماع المحاصرين في البلدان المجاورة ، وبين البلد والبلد مسافات شاسعة ، وطرق وعرة ، وحصون حصينة وقلاع متينة ، هي اليوم أكثر بلاد فلسطين المحتلة ، وبلاد لبنان الشقيقة ، تسابقت إلى الاستسلام خوفا ورعبا ، وعرفت أن المقاومة لا تجدى ، وأن صلاح الدين أمن ولاياته في الداخل ، وبسط العدل وأقام المساواة فيها ، ورفع راية الوحدة بين الإقليمين ، فاتفق السكان على الود ، وتناصروا على التراحم ، ووقفوا صفا واحدا حيال العدو ، يسرون تحت راية « الناصر صلاح الدين » لطردهم الغزاة المستعمرين ، وقد طال مكثهم في الربوع العربية ، لتخاذل العرب بالأمس وتفرقهم

وحرب بعضهم على بعض في الماضي . أما اليوم فلا مقام لهم في أرض صلبة وجيوش متكاثفة وشعب متراص .
وفي شهر واحد نزع صلاح الدين عن الإفرنج ما قضوا في سبيل أخذه وتعميره وتحصينه سنين كثيرة ، فأسر منهم مائة ألف ، واستخلص من أيديهم أكثر من عشرين ألف أسير من المسلمين .

ولما فرغ السلطان من « صيدا » سار إلى عسقلان لأنها على طريق الديار المصرية فإذا أخذها أمن الطريق واتصلت القوافل ، فتسلم الرملة وبيت لحم والخليل ، وحاصر عسقلان ثم تسلمها ، بعد أن أقام فيها الفرنج خمسا وثلاثين سنة وفتح غزة والنطرون ، وبيت جبريل .

فلما أتم فتح هذه المسدن استدعى من مصر الأساطيل المنصورة في سبيل هدف جلال ، هو القدس ، فكتب العماد يصف وصولها :

« فجاءت كالفتح بالفلك المواخر ، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجاً ، وأفواج تراحم أفواجاً ، تدب على البحر عقاربها ، وتخب كقطع الليل سحائبها » .

وهذا يدل على ما وصل إليه جيش الإقليمين من قوة

في البر هدمت الحصون وأرهبت الأعداء ، وحررت المدن
 في الساحل والداخل ، فساعدت رهبها وتزاحمها في نصرة
 العرب ، وإعزاز الشام ومصر ، وبلغت البلاد ذروة رقيها
 وقوتها واستكمال عدتها ، لترهب عدو الله وعدوها .
 وهذا ما دفع صلاح الدين إلى أن يفكر في إتمام
 تحرير البلاد العربية ، واستخلاص « القدس » أقوى مركز
 من مراكز الفرنجة في عظمته الروحية ومكانته السامية في
 قلوب المؤمنين . فقد كانت حملات الفرنج من أجله ،
 وقدومهم من بلادهم فيما زعموا لاستخلاصه . وبزواله تزول
 حججهم في البقاء ويصممهم التاريخ بأشنع اعتداء .

الفصل الحادى عشر

فتح القدس

٥٨٣ هـ

فكر صلاح الدين منذ أمد بعيد في تخليص القدس ،
ولكن الحال التي كان عليها الشام ومصر دفعته إلى التريث
والانتظار ، والعمل على الإصلاح في الداخل ، وتوحيد
البلاد ، وقتل الدسائس ، وتقوية الشام بمصر ، وتسيير
جيشيهما في جيش واحد ، فالقدس ميمنة مصر وذراعها
القوية ودرعها الحصين ، وهى ميسرة دمشق وذراعها القوية ،
ولا تم للقاهرة ودمشق قوة كاملة إلا إذا كانت القدس قلبهما
المتين الخفاق ، ولا يقوى جسم إلا بالقلب فهو مصدر
الحياة وشارة البقاء .

وقد فكر الخلفاء المسلمون في القدس ، وجعلوها نصب
أعينهم ، لموقعها الجغرافى ، ومكانتها الروحية ، فهى عربية
في نشأتها ، نزع إليها أبناء بيوس من الجزيرة العربية وسكنوها

حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، ومن ملوكها « سالم البيوسى »
 زاد فى بنيانها وصروحها وبروجها فسميت باسمها الكنعانى
 « أورو سالم » ثم لفظت « أورشليم » . ولبثت على الزمان
 تتنازعها الأمم حتى عاد إليها الملك العربى سنة ١٥ هـ ، على
 عهد الفاروق عمر بن الخطاب ، فدخلها بنفسه ، واستقبله
 أهلها خير استقبال وزار كنيسة القيامة فيها ، فلما حانت
 الصلاة صلى بجوار الكنيسة وهو الخليفة العادل العاقل ،
 رمزاً لتمسك المسلمين باحترام الأديان والشعائر ، والكنائس ،
 والحفاظ على المواطنين جميعاً فى مساواة وإنحاء ، لا فرق
 بين دين ودين ، وملة وملة ، وظل الخلفاء المسلمون بعده
 يرعون للقدس وغير القدس حق التدين والحوار ، فى عهد
 بنى أمية وبنى العباس وبنى طولون ، وبنى الإخشيد والفاطميين
 والسلاجقة ، تعلوا عليها الراية خفاقة فى عدالة وصفاء ،
 حتى كان هؤلاء الفرنجة ، حين زعموا السير إليها لتخليصها
 من ظلم لم يقع ، وفتنة لم تحدث ، فإذا وفدوا ساد الظلم
 وعمت الفتن ، وأغم صلاح الدين من أمرها ما أغمه ،
 فقد احتل الصليبيون السواحل ، وراحوا يستمدون منها
 الذخائر والرجال .

والقدس تقع بين بحرين ، البحر الميت من الشرق
والبحر الأبيض المتوسط من الغرب ، تبعد عن الأول ١٨
ميلا ، وعن الثاني ٣٢ ميلا ، فسبيل البحر إليها هو سبيل
المؤن والدفاع . فلما امتلك صلاح الدين مصر استعان
بسواحلها ومكن لأسطولها ، ليقطع على الفرنجة سبيل الإمداد ،
وليضرب الأسطول بالأسطول .

وامتلك البطل قلاع فلسطين وحصونها وأمن ما حولها ،
واستولى على حصن الكرك غربى حمص ، وعلى حصون
عكا ، فقد كان حصن الكرك مركز القيادة لخمسة آلاف
مقاتل ، وفيه حظيرة لألف حصان ، فاكتملت له العدة
الحربية كما تكتمل اليوم لأكبر هيئة عسكرية حديثة ،
بفضل ذكائه النادر وخبرته خلال السنين ، فقد ولد في
حصن تكريت وشبّ في حصن بعلبك ، وقضى حياته
على أبواب الحصون والقلاع ، كما رأينا ، وبذلك استطاع
أن يمكن للحرب وأن يضمن أسباب النصر ، في حطين ،
فرفع رايته على مقربة من القدس ، وساق الأسرى وزرع
الأرض ، بالقتلى ، فرفع الروح المعنوية للجيش ومهد للقتال
والظفر ، وبات همه استخلاص القدس .

فلما وصل الأسطول المصرى ، سار الناصر صلاح الدين متوجها إلى بيت المقدس ، مهبط الأنبياء ومسرى النبيّ المعظم - صلوات الله عليه - ومحط أنظار العرب والمسلمين . وكان الناصر يعلم أن الفرنجة قد حشدوا فى القدس خلص فرسانهم ، وأعظم قوادهم وملوكهم ، لأنهم كانوا يرون أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون عليهم بيت المقدس ، ويعتقدون أن بذل الأنفس والأموال والأولاد بعض ما يجب عليهم فى حفظه والذب عنه ، فحصّنوه بكل ممكن ، ونصبوا المنجنيق على السور .

فتزل السلطان على القدس يوم الأحد خامس عشر رجب (من سنة ٥٨٣ هـ) وبقى خمسة أيام يطوف حول البلد لينظر من أين يقاتله ، لأنه فى غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع قتال إلا من الشمال نحو باب عمود ، فانتقل إليه يوم الجمعة لعشر بقين من رجب ، ونصب عليها المنجنقات ، وتقاتل الفريقان أشد قتال رآه الناس ، « وكل منهم يراه فرضا واجبا فى دينه ، لا يحتاج فيه إلى باعث سلطانى ، بل كانوا يمنعون فلا يمتنعون ، ويزجرون فلا ينزجرون » كما قال ابن واصل .

وكانت خيالة الفرنج تخرج كل يوم إلى ظاهر البلد
فتقاتل وتبارز ، فيقتل من الفريقين جماعة ، حتى كثرت
الضحايا ، فهاجم المسلمون وحملوا حملة رجل واحد ،
وأزالوا الفرنج عن مواقعهم ، وأرجعوه إلى بلدتهم ، ووصلوا
الحنديق وتجاوزوه والتصقوا بالسور فنقبوه وزحف الرماة
يرمونهم ، والمجانيق توالى الرمي . فلما رأى الفرنج شدة قتال
المسلمين ، وأنهم أشرفوا على الهلاك اجتمعوا يتشاورون
فيما بينهم ، واتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم القدس
للسلطان . فأرسلوا جماعة من كبارهم في طلب الأمان ،
ولكن السلطان امتنع وقال :

« لا أفعل إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى
وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي ، وجزاء السيئة بمثلها » .
وعاد الرسل خائبين ، فأرسل (باليان) يطلب الأمان
لنفسه ، وحضر عند السلطان ، وطلب إليه أن يرق وأن
يرحم ، فإذا لم يجب السلطان عمد الفرنجة إلى المسجد
الأقصى فخرّبوه ، ثم قتلوا أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف .
فاستشار السلطان أصحابه فأجمعوا على الإجابة إلى الأمان ،
واشترط السلطان أن يزن كل رجل عشرة دنانير يستوى

فيها الفقير والغنى ، وتزن المرأة خمسة دنانير ، ويزن الطفل من الذكور والإناث دينارين ، فمن أدى ذلك إلى أربعين يوما نجا ، وإذا انقضت الأربعون يوما ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا .

وهكذا سلمت المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من رجب . وكان ذلك اليوم مشهودا ، ورفعت أعلام السلطان على الأسوار . وخرج الأهالي والقواد والجنود ، وخرج البطريرك الكبير الذي للفرنج ومعه أموال كثيرة لم يغرص لها أحد ، وسير الجميع ومعهم من يحميمهم إلى مدينة صور . ودخل المسلمون المدينة ، وكبروا وفرحوا ، وطهروا المسجد الأقصى مما زرع فيه الفرنجة من خبث وما أحدثوا فيه من أقدار ونصبوا المنبر . وأقاموا صلاة الجمعة في الأسبوع التالي ، فامتلأت عراض المسجد وصحونه بالحلائق ، واستعبرت العيون من شدة الفرح ونحشت الأصوات ووجلت القلوب ، وخطب القاضي محي الدين ابن الزكي ، وقد رقى المنبر بالأهبة السوداء العباسية خطبة بليغة تناقلتها كتب التاريخ . واحتاج المصلون إلى منبر كبير ، وقد كان نور الدين الشهيد يطمع منذ عشرين سنة في فتح القدس ، فصنع

للمسجد الأقصى منبرا حسنا فائق الصنع ، صنعه نجار بحلب من قرية « أخترين » ، ليس له نظير ، وقضى نور الدين قبل أن يستطيع وضعه في مكانه . فأمر السلطان بنقله من حلب ، فحمل ونصب بالمسجد الأقصى .

وقد تقدم الشعراء والكتاب بمدح السلطان لهذا الفتح الجليل ، فكان ديوان كبير من مجموع الشعر والنثر ، يصبح أن ينشر على الناس ، وقد قال ابن سناء الملك يمدح السلطان آنذاك :

لست أدري بأي فتح تهنا ؟ يا منيل الإسلام ما قد تمنى
 أنهنيك إذ تملكيت شأما أم نهنيك إذ تملكيت عدنا ؟
 قد ملكت الجنان قصراً فقصرأ إذ فتحت الشام حصناً فحصنا
 ' وقد تناهى السلطان في الرحمة والعظمة والعفو عند
 المقدرة ، فكانت عنه حكايات تروى كالأساطير في
 العطف على العجزة والمساكين وإعفاء عشرة آلاف من
 فقراء الفرنج لم يكن بأيديهم ما يفكون به أنفسهم من الأسر ،
 حتى قيل إنه قضى يوماً كاملاً وعلى بابه مناد ينادى بأعلى
 صوته : « هل من فقير فتؤويه وهل من عاجز فنحفيه ،
 وهل من ضعيف فنحميه ؟ » وكم بكى السلطان رحمة للمرضى

وأمر أن ترد الفدية إليهم ، وكم تلقى من رسائل في العطف على البائسين فأجاب ، وكم من أم أضاعت رضيعها فطلبته من السلطان فأمر برده إليها .

وهكذا ألقى السلطان دروسا في الأخلاق تشرف تاريخنا ، وتكمل صفحاتنا المجيدة ، وتلحق بمفاخرنا القديمة في الوفاء والشرف واحترام العجزة والشيخ والنساء والأطفال والمرضى ، ولعلها إذا وضعت بجانب ما روى الغربيون عن صفحات الفرنجة في بلادنا ترفع لنا الراية في الخير والبر والحسن . فقد روى مؤرخ الحروب الصليبية « ميشو » ما فعل الفرنج عندما دخلوا القدس فاتحين منذ تسعين سنة تقريبا فقال : « كان المسلمون يقتلون في الشوارع والبيوت ، ولم يكن من ملجأ يلجأ إليه . وكان بعض القوم يفر من الذبح فيلقى بنفسه من فوق الأسوار وكان الفرنج المنتصرون يمشون على أكداس من الموتى المسلمين ، وقد أحرق بعضهم وهم أحياء . وذهب في هذا الوقت نحو سبعين ألفا من المسلمين بلا ذنب ولا إثم . »

ولسنا في سبيل الموازنة والفخر بين ما فعل صلاح الدين وما فعل الفرنجة ، فمن شأن الغربيين أن يستبدوا

ومن شأننا أن نستعد ، ونحن اليوم من جديد أمام مختصين
من يهود أوربة سلبوا جزءا كبيرا من القدس ، وهم فيه
يهددون أماكننا المقدسة النصرانية والمسلمة ، فلا أقل من
أن نضع هذه السطور تحت أعين القراء العرب ليعرفوا
كيف سلك صلاح الدين في تخلص فلسطين والقدس ،
وليسلكوا ما سلك ، فما من سبيل إلا السلاح والقوة .

الفصل الثاني عشر

فتح القلاع والحصون

٥٨٣ هـ - ٥٨٥ هـ

لم يزل الناصر صلاح الدين مقبلاً بالقدس إلى الخامس والعشرين من شعبان ، سنة ٥٨٣ هـ . يرتب الأمور ، وينظر في المصالح ، ويصلح ما أفسد الفرنج في البلاد ، ويفرق الأموال ، حتى إذا أتاه كتاب من نائبه على صيدا يحرضه على حصار صور ، رحل السلطان عن القدس متوجهاً إلى عكا ومعه أخوه الملك العادل ، فوصلها وأصلح من شأنها ، ورحل منها إلى صور ، ونخم بإزاء سورها . و « صور » مدينة حصينة معظمها في البحر ، قد حفر الفرنجة خندقاً حولها من البحر إلى البحر ، واستظهروا بالعدد والعدد ، واستفادوا من انشغال السلطان بالقدس . فلبث صلاح الدين ينتظر هناك حتى تلاحقت العساكر به ، وجاءته الآلات . ثم راح يحاصر البلد ، واستدعى

الأسطول المصري وكان بعكا ليحول دون وصول أسطول الفرنجة . وغدا المسلمون يقاتلون المدينة براً وبحراً . وظلوا يحاصرونها حتى ضجر كثير من أمراء المسلمين ، فأشاروا على السلطان بالرحيل ، وكان قد دخل الشتاء واشتد البرد ، فلم يسع السلطان إلا موافقتهم على الرحيل . وسار إلى عكا ، ثم بعث من يحاصر القلاع والمدن الباقية ، فاستسلمت هونين ، وأبقى على قلعة كوكب من يحاصرها .

وسار السلطان إلى دمشق ، مستهل ربيع الأول سنة ٥٨٤ هـ ، فتلقاه الناس وفرحوا بقدومه ، فقد كانت غيبته سنة وشهرين كسر فيها الفرنجة وفتح بيت المقدس . ولما استقر بدمشق قراره أمر باستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد ، وابتدأ الجلوس بدار العدل ، وبحضرته الفقهاء والعلماء وأهل الدين ، وكان نائبه قد بنى للسلطان داراً بالقلعة أنفق عليها أموالاً طائلة وبالع في حسنها وظن أنها تقع من السلطان بموقع ، فلما رآها السلطان ما أعابها طرفه ، ولا استحسناها وقال : « ما يصنع بالدار من يتوقع الموت ؟ وما خلق العبد إلا للعبادة والسعي في تحصيل السعادة الأبدية . وما جئنا إلى دمشق بنية الإقامة » .

وهكذا كان ، فلم تطل إقامته أكثر من خمسة أيام ،
 بل بعدها إلى بعلبك ، مسرح صباه ، ثم رحل في أول
 يع الآخر ، ونхим على تل قبالة « حصن الأكراد » في
 بال عالية شامخة ، وشن الغارة على نواحي الحصن ،
 و من أمنع الحصون وأكبرها في المنطقة ، يبدو كأنه
 بقاب في شموخه ، يعتلى رأس الجبال ، وحوله تنحدر
 سفوح فتبعث في القلب رهبة وهيبة ليست لحصن من
 لحصون ، والناظر إليه يكبر همه صلاح الدين وجيشه في
 يجمعوم عليه والإغارة على أسواره المنيعة ، وأحجاره الكبيرة
 في تقارب أحجار الهرم في ضخامتها . والصاعد إليه
 يرك عظمة الهمة في البطل الناصر ، حين تطاولت إلى
 يراك النجوم واستلاب الكواكب ، واصطياد العقبان في
 رى الجبال .

وسار الناصر صلاح الدين إلى أنطربوس ، وجبله ،
 استولى عليهما وفتحهما ، كما فتح اللاذقية وهي مدينة
 واسعة ومعقل لا ترام ، وأحسن بلاد الساحل وأحصنها . فلما
 فتحها وقف السلطان على شاطئ البحر بعساكره ، واستقبل
 راكب صقلية وأمنها فصعد إليه رئيسها وقال له : « أنت

سلطان عظيم قد شاع في الأرض عدلك ، واشتهر فضلك وإحسانك ، فلو مننت على هذه الطائفة الساحلية الخائفة لملكيت قيادها ، ولو أعدت عليها ما أخذته من البلاد صاروا لك عبيدا وأطاعوك . . .

وهكذا غدا السلطان مرهوب الجانب ، بعيد الصيت ، يخافه الفرنجة في كل مكان ، ويخشون بأسه في البر والبحر ، وتحت كل حصن وفوق كل قلعة . لأنه قام بأمر الجهاد على حال شريفة ، في حرب يدعمها الإيمان وتسندها العزيمة ، ويغذيها الفداء والثبات .

وسار صلاح الدين من اللاذقية إلى قلعة صهيون وهي منيعة كذلك ، فملكها جنده البواسل ، ثم سار ففتح عدة حصون وقلاع يعينها حصرها وتعدادها ، وكلها صعب المنال عسير المرام ، ولكنه استولى عليها وأخذها ، وأراح السكان من أعدائها . وظل يسير إلى حماة ومنها إلى دمشق فبلغها قبل دخول شهر رمضان ، سنة ٥٨٤ هـ ، وقد أشير عليه أن يريح عسكره فقال : « إن القدر غير مأمون ، والعمر لا يعلم كم بقي منه ، وللفرص أوقات تنهز ، وقد بقيت مع الكفر هذه الحصون ، ولا بد من المبادرة إلى أخذها ، لا سيما صفد وكوكب . »

وكانت إقامته بدمشق هذه المرة كذلك أياما معدودات
إذ غادرها منتصف شهر رمضان إلى قلعة صغد ، فحصرها
وتسلمها ، ثم سار إلى كوكب فأحرق بالقلعة ، والأمطار
تنهمر والرياح تعول ، وجرح من خلقه كثير ، حتى تمكن
من نقبها فطلب أصحابها الأمان .

وكان هؤلاء الفرنج الذين يتركون القلاع ويغادرون
الحصون يذهبون جميعا إلى صور ، فاجتمع بها من شياطين
الفرنج وأبالستهم كل عنيد ، فاشتدت بصور شوكتهم ،
وتابعوا الرسل إلى من بصقلية والأندلس يستغيثون ويستنجدون
والأمداد تأتيهم ، وذلك كله خطأ السلطان في إطلاق
سراحهم وتركهم يلجئون إلى صور . ولو حبسهم في مكان
بعيد لما تجمعوا وتقوا ، ولكنه ندم على ذلك فيما بعد ،
وجعل للفرنج قوة هائلة متجمعة في صور . كان من الخير
تفريقها ، فقد هددت المسلمين بعد ذلك بخطر شديد إذ
حشد (كونارد) قائد صور قوة عسكرية هائلة لتهديد
البلاد . وقد لامه مؤرخو العرب على هذا الذهول العسكري
وجعلوه سببا في الحملة الصليبية القادمة .

ومهما يكن من أمر ، فقد سار إلى القدس وعيّد بها ،

ثم إلى عسقلان ، ثم إلى عكا فأقام بها حتى سنة ٥٨٥ هـ ، وهو ينظر في أمور عكا ومصالحها . ثم سار في مستهل صفر إلى دمشق ، وخرج منها في ثالث ربيع الأول فأقام بها شهرا كاملا ، وذلك لأنه لم يكن يعرف لنفسه الراحة والقيود ما دام الفرنجة في الحصون الإسلامية ، فهو يخرج إليهم بنفسه ، ويحاربهم بجيشه تحت قيادته ، وقد خبر الحرب والكر والفر ، والحصار والرمي ، كأنه جندي موكل بفتح القلاع وغزو الحصون ، يتأثر ما روى عن الرشيد يحج عاما ويغزو عاما ، وهو يغزو فحسب كل عام بل كل شهر .

ولهذا رحل الناصر إلى بانياس ومرج عيون ، والعساكر تتواصل وتأتي من كل ناحية ، فجاءه أن الفرنج بصور يستعدون للهجوم ، وقد خرجوا وفتكوا ، والأمداد تأتيهم من كل فج ، فلما استكملوا العدة أقبلوا على حصار عكا من كل جانب ، فأقبل عليهم المسلمون فوقعت الوقائع : ونحسر المسلمون كثيرا من جنودهم ، ولكن طريق عكا انقطع عنهم . وأقبلت خمسون قطعة من الأسطول المصري لعون صلاح الدين ، وقد تأزم وضعه الحربي .

وهنا أرسل السلطان كتبه إلى جميع الأقطار يستدعى
الناس إلى الجهاد ، ويحثهم عليه ، ويحذرهم من تجمع
الفرنج واحتشادهم وبلوغ الممدد الكثير إليهم عن سبيل
البحر والبر ، وأن ملك الألمان خرج من القسطنطينية في
مثنى ألف جندي يريد البلاد الإسلامية ، ولبت السلطان
صلاح الدين ينتظر الأمداد بفارغ الصبر ، فقد انقلب
آخر الأمر من مهاجم إلى مدافع ، وسرى ما يكون منه .

الفصل الثالث عشر

بين النصر والفشل

٥٨٥ هـ - ٥٨٨ هـ

وثق السلطان « صلاح الدين » بعهود الفرنجة ، فكان يطلق سراح الأمراء والقواد على أن يتوبوا وأن يعودوا شاكرين ، وكان يتعاهد معهم في إرجاء المعارك والغزوات ، فيطبق المعاهدات بكل شرف ، ولكنهم تعودوا الكذب والمكر ، فلا يقابلونه إلا بالخيانة والنكث . وسبب ذلك كله أنه كان مؤمنا أشد الإيمان فلا يحث ولا يخلف ، ويظن أن القواد العسكريين من الفرنجة هم على مثل ذلك لا يحشون ولا يخلفون ، فتبين له بعد ذلك ضعف معرفته بأخلاق الفرنجة ، وشدة طيبته وإخلاصه . ولكن هذا كله كلفه غاليا وجر على البلاد بسبب رحمته وعطفه بلايا كثيرة .

فقد تجمع الفرنجة في « صور » وازداد عددهم ولبت السلطان منذ سنة ٥٨٥ هـ ينتظر الأمداد ، ودخلت

سنة ٥٨٦ هـ ، وهو على انتظار الغوث والنجدات ، والفرنجة قد انصرفوا إلى بلادهم لهجوم الشتاء وتوالى الأنواء . فلما انقضى الشتاء ودخل الربيع جاءت العساكر والنجدات يتلو بعضها بعضا ، والملوك والأمراء يفقدون عليه ، وهم عالمون بما وصل إليه الحال من عود الفرنجة إلى سالف أمرهم بعد أن تجمعوا في صور .

وكان الفرنج قد شرعوا في بناء الأبراج على عكا ، ثم بدأوا في طمّ الخندق استعدادا للهجوم على البلد ومضايقة المسلمين المحاصرين فيها ، فكتب ثانية إلى سائر الأطراف في الحث على وصول العساكر ، وذلك بسبب الأبراج الخشب فهي تعلو حتى تكاد تلاصق السور ، وكان المسلمون يشغلون الفرنج بالقتال عن جرّها قرب السور ، ثم فتقت الحيلة لأحد الدمشقيين فجمع العقاقير وطبخ الأدوية من النفط ورى بها الأبراج واحدا بعد واحد فأحرقها كلها . وأراد السلطان أن يكافئه فلم يقبل وقال : « هذا عملته لله ، فما أريد سواه جزاء » فأوقف السلطان عليه قرية من خيبر قرى دمشق .

وقد فرج الشاب الدمشقي عن كربة المحاصرين ، فخرج

أهل عكا من البلد ، وأطفأوا النار وسدوا الثغر . ووافق ذلك وصول الأسطول المصري فخرج السلطان إلى لقائه ، وجهزت الفرنج أساطيلهم لمقاتلة أسطول المسلمين ، فطعن أسطول المسلمين أسطول الفرنج وقتل منهم كثيراً . وجاءت البشرى كذلك بأن ملك الألمان « بارباروس » الذى كان على حملة إلى بيت المقدس ، قد لقي حتفه غرقاً في أحد الأنهار ، وأن جيشه قد عمّ أكثره المرض ، وصار معظمهم حملة عصى وركاب حمير ، كما جاءت رسائل من ملك الروم بقسطنطينية إلى السلطان تطلب المودة وتقيم الخطبة في جامع القسطنطينية لسلطان بعد الخليفة العباسى ، وهذا نصر كبير في فصل الروم عن الفرنجة ، وإيصال صوت الإسلام وبغداد إلى قلب بيزنطية في القرن السادس للهجرة .

ودخل الشتاء فأبدت العسكر السامة والضجر من الإقامة ، فأذن لأكثرهم بالرخيل إلى بلادهم ، وقد أمنت غائلة العدو بسبب تواتر الأمطار واشتداد البرد ، وذلك ليأخذ الجنود نصيبهم من الراحة .

ودخلت سنة ٥٨٧ هـ ، فخرج المسلمون من عكا

على الفرنج وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فلما أقبل الربيع
توافت العساكر وأقبل قوادها ، ووصل إلى الفرنج أمداد
من البحر ، ووصل ملك فرنسة « فيليب » كما وصل ملك
الإنكليز « ريتشارد قلب الأسد » فزحف العدو على عكا
ونصب المجانيق ، وصنع دبابه عظيمة هائلة ذات أربع
طبقات تعار على السور ، وخاف أهل البلد ، فهاجم
المسلمون على خيم العدو ونهبوها ، ومرض ملك الإنكليز ،
وجرح ملك الفرنسيين ، وهرب المراكيز إلى صور ، ولكن
الجيش الفرنجي زحف على عكا ، فهاجم السلطان بحث
على الجهاد وينادي : « يا للإسلام » وعيناه تذرفان الدموع ،
ولم يطعم هو ولا الناس في ذلك اليوم طعاما ، وقضى الليل
في هم ، فلما أصبح عاود القتال ، ولكن نفوس العرب من
أهل عكا قد ضعفت ، وتمكن العدو من الخنادق فلأها ،
ونقب السور ، ودخل البلد فسقطت عكا ، وكانت مذبحه
وكارثة ، فنى فيها من جند صلاح الدين كثير .

وسقوط عكا شجع الفرنج على متابعة القتال والحصار
واسترداد ما خسروا فساروا نحو عسقلان ، وسار إليهم
السلطان بجيوشه فقتل وأسر ، وخرّب البلد على مضض منه

خشية وقوعها في يد العدو . ونزل بعدها على الرملة وأمر بتخريبها كذلك . فلما علم الفرنج بخطته راسله ملك الإنكليتر (الإنجليز) في المسألة والمصالحة ، برسالة قال فيها : « إن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد ، وتلفت الأموال والأرواح ، وقد أخذ هذا الأمر حقه . وليس هناك سوى القدس » فأرسل إليه السلطان يقول : « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ، ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، أما البلاد فهي لنا في الأصل ، واستيلائكم كان طارئا عليها ، لضعف من كان لها من المسلمين في ذلك الوقت » . وهذا جواب سياسى حكيم ، شديد التسامح ، كأنه كتب بلغة اليوم ، لا غبار عليه لو أن العدو كان يفهم معنى التسامح والعدل ، فهم دائما يهمون بالغدر والنكث فيعملون الحيلة في الوصول إلى ما وصلوا إليه . لذلك قرر السلطان أن يقيم في القدس ، فوصل إلى البلد ، والشتاء قد دخل ، فشرع في تحصين القدس ، وعمارة أسواره ، وعمل فيه بنفسه ، فنقل الحجارة هو وأولاده وأجناده وأمرأه

ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء . وذلك لأنه يعد الدفاع .
عن القدس دفاعا عن العالم العربي والإسلامي كله ، فهو
رمز القوة والاستقلال .

وقد صدق ظن الناصر ، فهاجم الفرنج القدس ولكنهم
باءوا بالفشل ، إذ قطع عليهم المياه وأفسد ما بقي منها ،
فراسله ملك الإنكليز في الصلح لحقن الدماء ، واستشار
صلاح الدين أعوانه فأشاروا بالصلح لكثرة ما أخذ الجيش
من الضجر والتعب ، وعلاهم من الديون . وتم الأمر بأن
لا يتعرض أحد لمن سكن فيها ، وأن تكون البلاد الساحلية
للفرنج ، والجبلية لصلاح الدين .

وجاء السلطان خبر يفيد بأن الفرنج رحلوا طالبين
بيروت ، في رجب سنة ٥٨٨ هـ ، فبرز من القدس ،
وسار إلى الرملة ، وحاصر يافا فطلب أهلها الأمان ولكن
ملك الإنكليز استرجع ربضها . فعاد السلطان إلى النطرون
وعقدت بعدها هدنة بين الفرنجة وصلاح الدين ، إذ مرض
ملك الإنكليز مرضا شديدا ، وعاد الفرنسيون إلى بلادهم
ليعبروا البحر ، وكانت مدة الهدنة ثلاث سنين ، عامة
في البحر والبر .

وهنا رحل السلطان إلى القدس في رابع شهر رمضان ،
 وراح يتفقد أحوالها ، ويشغل بتشييد أسوارها وتحصينها ،
 وتعمير خنادقها ، وتنظيم شئونها ، فبنى المدارس والملاجئ
 والمستشفيات ، وعادت مدينة زاهرة بالعلم والمعرفة والتقوى
 والحير .

ورحل السلطان من القدس إلى دمشق بعد أن طاف
 بالقللاع والحصون في الطريق ، فبلغ دمشق في خمس بقين
 من شوال ، وفرح الناس به لأن غيبته عنها كانت قد طالت
 مدة أربع سنين ، كانت تبلغهم خلالها أنباء الانتصارات
 والانتكسارات ، فيفرحون ويحزنون ، وأخيرا أتتهم أنباء
 الهدنة ففرحوا بعودة البطل الناصر إليهم ، وقد بذل من نفسه
 وصحته ما بذل في سبيل بقائهم ونصرهم وعزة العرب وبقاء
 الإسلام .

الفصل الرابع عشر

خاتمة المطاف

٥٨٩ هـ

قضى صلاح الدين شبابه في غزو مصر تحت راية نور الدين ليجمعها إلى الشام ، فلما مات نور الدين أصبح صلاح الدين يتردد بين القاهرة ودمشق لإدارة هذا الملك العريض . ثم لبث في الشام أواخر حياته ، يحارب الصليبيين حتى كأنه ما نزل عن ظهر فرسه ، ولا رأى الراحة ، فطورا كان ينتصر وأنا ينكسر ، وفي كليهما كان يبذل جهده ونفسه في سبيل الله والوطن . فما هان ولا لان ، ولا سكنت نفسه إلى اللذائذ والترف كما تسكن نفوس الملوك ، وإنما كانت الحياة في نظره جهاداً في سبيل الله والوطن والعروبة والإسلام ، فالجهاد كان سبيلاً إلى الجنة ، والجنة هي الخلود بعينه ، لذلك أثر الآخرة على الدنيا ، وكتب بأعماله ملاحم خالدة ، يصحح أن ينظم فيها شاعر

ما نظم هوميرو وما تخيل اليونان والرومان والفرس ، فهو رمز
البطل والبطولة ، لو صنع له تمثال لكان على فرسه ، يشق
به الغبار ، ويعتلى به سفوح الجبال ليبلغ إلى أعلى الحصون .
ولو رسمت له لوحة فنية لكان فيها داعية إلى الجهاد يحث
على القتال وهو يصيح « يا للإسلام » والخيول من حوله
تسقط والفرسان يجندلون بالسهم والسيوف والنبال .

ولم يكن صلاح الدين ملكا لناحية فحسب ، بل
كان لكل شبر من أرض الشام ومصر ، رقص خياله على
كل جدار ، ومر شبحه أمام كل حصن ، وركض فرسه
في كل أرض فكأنه طاف بلاد الشام مرات ، وزارها
عشرات كما نطوف من غرفة إلى غرفة داخل بيوتنا الضيقة .
ورأسه يفكر في خير هذه الأمة التي أولته قيادها ، فما
جلس في قصره يدير المعارك ، وإنما قام بجسمه في خوض
المعارك ، وحملت يده الأحجار والنبال والسهم مع الجندى
الصغير في كل زاوية وفي كل معركة .

لقد كان صلاح الدين جنديا عظيما من جنود الحرب
في سبيل الخير وفي الذود عن الحمى والدفاع عن الحدود ،
وما تخلف عن معركة من المعارك الفاصلة ، فرأى الموت

عيانا ، وأقبل على الاستشهادات مرات ، فضرب المثل
الرائع لجنوده وأمرائه وقواده ، وشجعهم على الاستبسال
والاستشهاد . ولكن الله لم يكتب له أن يموت داخل المعركة
شهيدا على فرسه أو قبالة حصن من الحصون ، وإنما قدر
له أن يعود إلى دمشق الحبيبة ، وإلى شعبها الباسل ، وأن
يقضى بين أنين الشعب وزفراته حزنا على موته .

فقد عاد إلى دمشق لخمس بقين من شوال سنة ٥٨٩ هـ ،
وهو في السادسة والخمسين من العمر ، قضى ستة عشر
عاما منها في الغزوات والمعارك فاتحا ومدافعا ، مقاتلا ومحاميا ،
وقد ملّ جنده وسئم قواده نخوض المنايا ، فأذن لهم في التفرق
إلى بلادهم ، بعد أن عقد الهدنة مع الفرنج ، فأتاه ابنه
الملك الظاهر صاحب حلب ليفوز بالنظر إلى أبيه ثانيا ،
وكان نفسه حدثته بدنو الفراق إلى غير لقاء ، ثم رحل
عنه إلى حلب . وبقي عنده بدمشق ولده الملك الأفضل
نور الدين ، وجماعة من أولاده ، والقاضي الفاضل كاتبه .
وأما القاضي ابن شدّاد فقد تركه في القدس ليتوجه إليه
السلطان الناصر في سبيله إلى مصر ، فقد عزم صلاح الدين
على أن يزور الديار المصرية بعد أن طال عهده في البعد عنها .

ولبت السلطان في دمشق يتصيد حول قرية « غباغب » إلى « الكسوة » ، كأنه لا يستطيع أن يبقى بعيدا عن المعركة ، إما في صيد الحيوان وإما في قتال الأعداء . ثم عاد إلى دمشق ورسل الأمصار تفدا إلى بابه ، وهو يجلس كل يوم لإسداء المكارم وكشف المظالم حتى دخلت سنة ٥٨٩ هـ ، والسلطان على أمل ما يكون من المسرة — كما قال المؤرخون — .

وفي الثاني عشر من صفر وصل القاضي ابن شداد قادما من القدس ، ودخل على السلطان ، فضمه إليه ودمعت عيناه ، ودخل عليه كذلك في اليوم التالي ، ثم دخل في اليوم الثالث فرآه في البستان وعنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين فقبل رسول الفرنجة وجماعة من الأمراء الأكابر ، فاستحضر الفرنج إلى ذلك المكان وكان له ولد صغير يداعبه ، فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكالهم خاف منهم وبكى ، فاعتذر السلطان إليهم وصرفهم بعد أن حضروا ، ولبت مع ابنه يشفي غليل نفسه من مداعبته ورؤيته .

وفي اليوم الرابع خامس عشر من صفر ، ركب السلطان للقاء الحاج الشامي وكان يوما عظيما خرج فيه معظم من في البلد . فلما لقي الحاج استعبرت عيناه وتساءل كيف فاته

من الحج ما تمناه ؟ وكم عقد النية على ذلك ولكن أصحابه منعه منه خوفاً من أن ينكث الفرنجة أو يغيروا على الشام فيقع ما لا تحمد عقباه . ووفق السلطان يسأل الحاج عن أحوال مكة وأميرها وأهلها ونخسبها ومحلها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها والفقراء والمجاورين ، ورواتبها وإداراتها ، وسرّ بسلامة الحاج .

ثم سار السلطان بين البساتين يطلب جهة « المنبيع » حتى أتى القلعة ، فعبر الجسر إليها ، وكانت هذه آخر ركباته . وذلك لأنه بعد لقاء الحاج والتأثر الذي أصابه بحرماته منه وجد ليلاة السبت كسلا عظيما في جسمه ، فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية ، أصبح يوم السبت وعليه أثر الحمى . فحضر عنده القاضي ابن شداد والقاضي الفاضل ، ودخل ولده الملك الأفضل ، وأخذ يشكو السلطان من قلقه بالليل ، وطال حديثه إلى قريب الظهر .

ثم أخذ المرض يتزايد من حينه ، إلى أن انتهى إلى غاية الضعف ، وفي اليوم التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول الطعام ، واشتد الإربجاف في البلد ، وغشى

الناس بكاء وحزن . وفي اليوم العاشر حقن دفعتين فاستراح ،
وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا . وما مضى هزيع من
الليل حتى خارت قوته واستشعر الأطباء نهايته .

وفي ليلة الأربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ (٤ مارس
١١٩٣ م) اشتد به المرض ، وغاب ذهنه ، وكان الشيخ
يقرأ عنده فلما وصل إلى قوله تعالى : « هو الله الذي لا إله
إلا هو عالم الغيب والشهادة » سمعه يقول : « صحيح » ، وكانت
آخر كلمة لفظها .

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح ، وهو في السابعة
والخمسين من عمره . فعلا البكاء واشتد الحزن ، وخرج
أولاد السلطان يستغيثون بين الناس ، فكان المشهد رهيبا
يثير الكمد والحسرة . وغسل وكفن وأخرج بعد صلاة
الظهر ، وأم بالناس قاضي القضاة محي الدين بن الزنكي ،
ثم أعيد إلى الدار التي في البستان حيث تمرّض ، ودفن
بالضفة القريبة منها . وجلس الناس للغزاء جلوسا عاما ،
واستمر حضورهم بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له .
وبكاه أهل دمشق قاطبة ، ونحلت الأسواق ، وندرت المارة
فكان حزنا شاملا أرجاء المدينة التي رفع ذكرها وأعلى اسمها .

وبعد ثلاث سنوات أعدّ له ولده الأفضل قبرا بجوار الجامع الأموي ، في مكان كان دارا لرجل صالح اشتراها منه ، ونقل رفاته إليه يوم عاشوراء ، بمحفل رهيب ، وجلس للعزاء بالجامع ثلاثة أيام . وقد حرم على الشعراء والكتاب رثاءه ، فلا يستطيع شعر أن يوفي الخسارة حقها ، ولا يستطيع نثر أن يرسم الكارثة بفقده . فقد كان أمة وحده ، وكان بطلا مثاليا ندر أن يجود الزمان بمثله ، نصر أمته وأعزها ، وكفل لها البقاء ، فأرهب أعداءها ، ورفع لها شأنًا في التاريخ تعتر به على الأجيال .

وقد كان مولده فيها رأينا سنة ٥٣٢ هـ ، وكانت مدة ملكه الديار المصرية ٢٤ سنة ، وملكه للشام قريبا من ١٩ سنة ، وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا ، وبنتا واحدة . وهذا الملك الذي حكم قريبا من أربعين سنة قضى وليس في خزانته سوى سبعة وأربعين درهما ، ولم يخلف دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ، وإنما ترك هذا الصيت الواسع والدويّ الهائل والذكر الخالد أبد الدهر . يكبره العرب ويكبره الغربيون على رغم وقوفه أمام جيوشهم وقتاله لرجالهم فقد قال فيه « ول ديورانت » وهو أحدث من كتب

عنه في هذه السنين بالغرب بعد أن وصف معاركه^(١) :
 « وبعد ، فإن اعتدال صلاح الدين ، وصبره ،
 وعدله ، قد غلبت بهاء (رتشد) وشجاعته ومهارته الحربية ،
 كما غلب المسلمون بفضل إخلاص زعمائهم ووحدتهم
 الزعماء الإقطاعيين المنقسمين على أنفسهم ، والذين يعوزهم
 الولاء للغرض والإخلاص في المقصد . وكان قصر خط
 التموين من وراء المسلمين أعظم فائدة من سيطرة المسيحيين
 على البحار . وكانت الفضائل المسيحية أبرز في السلطان
 منها في الملك المسيحي . فقد كان صلاح الدين مستمسكا
 بدينه إلى أبعد حد ، وأجاز لنفسه أن يقسو أشد القسوة
 على فرسان المعبد والمستشفى . ولكنه كان في العادة شفيقا
 على الضعفاء ، رحيا بالمغلوبين ، يسمو على أعدائه في وفائه
 بوعده سموًا جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق
 الدين الإسلامي — الخاطئ في ظنهم — رجلا يصل في
 العظمة إلى هذا الحد .

وكان يعامل خدمه أرق معاملة ، ويستمع بنفسه إلى
 مطالب الشعب جميعها . وكانت قيمة المال عنده لا تزيد

(١) قصة الحضارة ، ١٥/٤٤ .

على قيمة أنلتراب . ولم يترك في خزانته الخاصة بعد موته
إلا دينارا واحدا ، وقد ترك لابنه الظاهر قبل موته بزمان قليل
وصية لا تسمو فوقها أية فلسفة مسيحية :

« أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير . وأمرك
بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك . وأحذرك من الدماء
والدخول فيها والتقليد بها فإن الدم لا ينام . وأوصيك بحفظ
قلوب الرعية والنظر في أحوالهم ، فأنت أمين وأمين الله
عليهم . وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة
والأكابر . فما بلغت ما بلغت إلا بمداواة الناس . ولا تحقد
على أحد ، فإن الموت لا يبقى على أحد ، واحذر ما بينك
وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله
يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم » .

ونظر إليه القادة الغربيون نظرتهم إلى قائد وقف أمام
قواتهم فحال دون تغلبها في ربوع العرب ، فكان انتصاره
العسكري عليهم رمز اندحارهم وتقهرهم وانكسارهم ، فأكبروا
فيه المهارة العسكرية والشجاعة الحربية ، وجعلوه رأس القادة
الكبار في الأمم فقد كان وحده قائدا ، وكانت أمامه قوات
وقيادات من أمم مختلفة فاستطاع أن يتغلب عليها وأن يصمد

لها . فلما قدم الإمبراطور غليوم إلى دمشق سنة ١٨٩٨
ومعه الإمبراطورة ، خطب خطبة بليغة فيها قال : « ومما
يزيد في سرورى أنى موجود فى بلد عاش بها من كان
أعظم رجال عصره ، وفريد دهره شجاعة وبسالة ، من
كان قدومه الشهامة ، والذي كانت شهرته متجلية فى
الآفاق ، ألا وهو البطل صلاح الدين الأيوبي » .

وقد أرسلت الإمبراطورة إكليلا بديعا من الزهر ليوضع
باسم الإمبراطور على ضريح هذا البطل العظيم ، وكتب
عليه بالعربية : « ويلهم الثانى قيصر ألمانيا وملك بروسيا ،
تذكارا للبطل صلاح الدين الأيوبي » . وهذه الوقفة أثارت
مشاعر شعرائنا فقال شوقي يذكرها مخاطبا الإمبراطور :
دعوت أجلّ أهل الأرض حربا

وأشرفهم إذا سكنوا سلاما

وقفت به تذكّره ملوكا

تعوّد أن يلاقوه قياما

وكم جمعهم حرب فكانوا

حداثدها وكان هو الحساما

وإذا كان هذا موقف غليوم ، فقد وقف غيره من

الضباط المستعمرين موقف القحة والدناءة ، إذ قدم على قبره فقال له : « ها نحن أولاء يا صلاح الدين » ، لكن صلاح الدين كان عظاما هامة ، ولو كان هذا القائد الغربي الكسيح الهزيل في عصر صلاح الدين لقضى رعبا قبل أن يتشرف بالمثل بين يديه . ولكن الجرأة على الأموات من صفة الجبناء ، وليست من الشجاعة في شيء ، وليست من الخلق في أمر . وإن وقفته تدل على إحساسه العميق بذلّ أجداده من قواد الفرنسيين الذين أطاح صلاح الدين برؤوسهم وعمر على جثثهم بروج الدفاع وأسوار الحصار ، وتدل كذلك على شدة حنقه لتاريخ أمتة المقهورة في بطاح الشام وفلسطين ، والعجيب أن هذا الحق ما يزال يتنقل في دماء قوادهم على مرّ ثمانية قرون لم ينسوا خلالها ذلم العسكري وأنكسارهم الحربيّ على يدي بطلنا صلاح الدين . أما الأشراف والنبلاء والزعماء والقادة من بلادنا العربية ، فهم يقفون على قبره ليستمدوا من روحه السامية روح التضحية والبطولة والفداء ، وليقبسوا من هدى تعاليمه وجهاده مبادئ الوحدة الكبرى التي عمل لها ، والنضال في سبيل العرب الذي قضى حياته له ، فهو شعلة خالدة تنير الطريق إلى

خير العرب وتآخيههم وتكاتفهم ووقوفهم صفا واحدا في وجه العدو المغير .

وكيم من وقفة تاريخية على هذا القبر الجليل يسطرها الدهر بمداد العزة للعرب ، وآخرها ما كان من زعيمى مصر والشام ومبايعة الرئيس جمال عبد الناصر أمام هذا الهيكل الخالد في ٢٨ فبراير ١٩٥٨ ، ليقود العرب إلى وحدة كبرى تجمع الشمل وتوحد الراية ، وتصل الجيش بالجيش وتمحو الحدود ، وتزيل السدود ، وتقرب بين القلوب والأفئدة في سبيل رفعة العرب ومجدهم ، ليكتبوا من جديد صفحات الفخار والأجاد كما كتبها صلاح الدين في عصره .

وهذه الوحدة الكبرى التى نهض لها صلاح الدين فحققها وكاد يبلغ ذروة أمانيه فيها لولا موته ، هى الوحدة التى نهض لها قادتنا وشعبنا وتصبو إليها عيوننا وأفئدتنا ، فتزيل الحصون اليهودية ، ونمحو الأعلام الأجنبية من أراضي العرب ، ونعيد فلسطين قطعة من أرضنا وفلذة من كبدنا ، ونعلى على روابيها رايات الفخر والانتصار والوحدة . ونكتب من جديد نصرا على نصر فى تلال حطين ، وفى أسوار القدس الجديدة وفى كل بقعة كتب عليها صلاح الدين بسيفه سطور الظفر .

إن العرب ليستظفرون ذكرى صلاح الدين اليوم
أكثر من أى يوم مضى ، فإن أيام صلاح الدين عادت
تنتظر الناصر الجديد لخطين جديدة ، والعدو عاد إلى الأرض
التي أبعدها عنها صلاح الدين ولكن باسم جديد ، لا باسم
الصلبيين والفرنجة بل باسم مستعار هزيل هو ضحكة
القدر وهزة التاريخ ، يحمل الباطل في لفظه والسخرية في
رسمه . وقوى الشر التي هجمت على الشام من قبل هي
التي كانت وسيلة إلى دعمه ، وكانت شريكه في حربه ،
فدحرت مرة مرة ، وهي تنتظر المرة الحاسمة التي تدحر
فيها إلى غير رجعة ، وتذهب فيها إلى البحر ، كما ذهب
الصلبيون على يد صلاح الدين وجيش العرب الموحد ورائه .
وإن العرب لينظفرون إلى ذكرى صلاح الدين في
البلاد التي عاش فيها بمصر والشام ، ذكرى عزيزة غالية
فيها تقديس وإعزاز ، وينظفرون إلى دمشق التي حضنت
رفاته نظرة عطف وحنو وحب ، فيحجون إلى قبره في هذه
الأيام العصيبة وقد تكالب الغرب من جديد ، لغزو بقعة
ضيقة لا يكاد الناظر إليها يصدق أنها تضم جسدا حمل
آمال أمة كبيرة .

هذه البقعة تحتاج إلى من ينظر فيها ويعنى بمكانها ،
ويحتفل بتوسيعها ، وتجميل ما حولها ، وتحويلها إلى حديقة
كبيرة تتوسطها قبة القبر الخالد ، ويعلوها النسر الصلاحي ،
ومنه رسم خلفه صلاح الدين بالألوان على قلعة مصر .
أجل إن الأحجار لا تخلد أصحابها ، والأوابد لا تنصر
أهلها ، ولكن الجليل الذي نعيش فيه يجب أن يقرأ أسماء
أبطاله كما يقرأ الغربيون ، منقوشا على الحجر في آبدية كبيرة
تكتب عليها أسماء المواقع والحصون والبلدان والمعارك التي
خاضها الناصر في سبيل أمة العرب ، وربما ضاقت الآبدية
عن هذه الأسماء ، لأنها كثيرة . فالقلاع والحصون والبلدان
هي جغرافية أرضنا كلها من أقصى الشام إلى أقصى صعيد
مصر وتخوم أفريقية ، تضم أعلام الأماكن في الجمهورية
العربية المتحدة بإقليمها السوري والمصري ، والجمهورية
اللبنانية ، وفلسطين السليبة ، والأردن الشقيق . وهذه
الأماكن دافع عنها صلاح الدين على فرسه وبسيفه وحسامه ،
وبذل في سبيلها مهجته ونفسه وراحته وأمنه ، فكتب في
كل ركن من أركانها وفي كل زاوية من زواياها صحائف
لأبنائنا وبناتنا .

إن الأمم تحتفل بالهندي المجهول ، والضابط المشهور ،
والإمبراطور العظيم ، والرئيس الداهية ، والمخلص الوطني ،
والحاكم العادل ، فترفع له الأوايد ، وتسمى باسمه الساحات
والمدارس والجامعات والمستشفيات . وصلاح الدين كان
كل هؤلاء جميعاً ، فكان جندياً وضابطاً وملكاً ورئيساً
وزعيماً وحاكماً ، يستحق من أمة العرب فوق ما فعلت
فرنسة لنابليون ، من ضريح كبير ، وقوس للنصر واسع ، فأين
صلاح الدين في أمتنا من ذلك الكورسيكي في أمته .

إن صلاح الدين الأيوبي - كما رأينا في هذه الصفحات
الموجزة - أبلى أيامه في المعارك ، وملاً عينيه من الانتصارات ،
وتحرك لسانه بالنجدة والإغاثة والشكر لله والدعاء بالحمد
والدعوة للجهاد ، وحملت يده السيف سنوات عمره تضرب
في الأعداء فما كلت ، وتجهز على الخونة فما ملت ، حتى
تحقق له النصر ، وطرد الصليبيين ، وأدهش الغرب بحياته ،
كما أدهشهم بمماته فخصوا به الكتب والمجلدات تروى
أساطيره وملاحمه .

ولأنه رسم الوحدة الكبرى للعرب قبل ثمانية قرون ،
فجمع مصر والشام وأفريقية واليمن ، ودعا باسم بغداد ،

فكأنه جمع العالم العربي كله . وعمل على إنقاذ هذه البقاع من يد الأجنبي ، وأبقاها حرة مستقلة بحكمته وبسالته ، ودهائه وكرمه ، ونخلقه ودينه ، وعقيدته ووطنيته ، فقضى كل دقائق عمره في سبيل العرب ، لم يضع ساحة تمر أو فرصة تنقضي إلا كان قلبه الكبير يفكر بالوطن العربي الكبير ، فله من رقايع هذا الوطن العربي الكبير وبقاعه كل وفاء وإكبار .

لقد هجم الألمان ، وغيرهم ، بجمعهم وملوكهم وقوادهم وجيوشهم في البر والبحر ، بالآلات والدروع والسيوف والدبابات ، فوقف لهم بنفسه وصددهم بجيشه . واستنقذ في تسعة عشر عاما ما كسبوه خلال قرن تقريبا . فكأن أوربة كلها اجتمعت على حربه وقتاله فانتصر عليها جميعا بفضل إيمانه ووحدة العرب ، وبقيت مدينة « صور » وحدها قلعة للفرنج ، ولولاها لظهر البلاد العربية كاملة من رجس الغزاة وغزوهم ، ولكنه مهد لطردهم نهائيا عن ربوعنا على أيدي خلفائه من بعده .

ولهذا تقف أجيال العرب أمام ذكره وقفة الإكبار والتقديس ، في وفاء لا تمحوه السنون ولا تطمسه الأعوام .

وسيبقى اسم « الناصر لدين الله المظفر صلاح الدين يوسف
ابن أيوب » ما بقى الدهر ، وما تقلب الليل والنهار .
رحمه الله رحمة واسعة .

أبواب الكتاب

صفحة

٥	الإهداء
٧	مقدمة
١٤	الفصل الأول — العصر المضطرب
٢٩	الفصل الثاني — بنو أيوب

القسم الأول

تحت راية السلطان محمود نور الدين

٣٩	الفصل الثالث — صلاح الدين في دمشق (٥٤١-٥٥٩)
٤٦	الفصل الرابع — في غزو مصر (٥٥٩-٥٦٤)
٥٦	الفصل الخامس — حاكم مصر (٥٦٤-٥٧٠)

القسم الثاني

السلطان المستقل عن مصر والشام

٨١	الفصل السادس — إخضاع الشام (٥٧٠-٥٧٢)
----	--------------------------------------

- الفصل السابع — في معارك الصليبيين (٥٧٢—٥٧٨) ٨٧
- الفصل الثامن — في الشام والجزيرة (٥٧٨—٥٨٢) ٩٤
- الفصل التاسع — موقعة حطين (٥٨٣ هـ) ٩٨
- الفصل العاشر — الفتوحات العظيمة (٥٨٣ هـ) ١٠٦
- الفصل الحادى عشر — فتح القدس (٥٨٣ هـ) ١١٠
- الفصل الثانى عشر — فتح القلاع والحصون (٥٨٣—٥٨٥) ١١٩
- الفصل الثالث عشر — بين النصر والفشل (٥٨٥—٥٨٨) ١٢٦
- الفصل الرابع عشر — خاتمة المطاف (٥٨٩ هـ) ١٣٣

كتب أخرى للمؤلف

صدرت في دار المعارف بمصر

١ - تحقيق وتعليق :

التحف والهدايا : للخالدين
شرح ديوان صريع الغواني مسلم ابن الوليد
شرح ديوان أبي فراس الحمداني
في مجموعة ذخائر العرب
» » »
تحت الطبع

* * *

٢ - تأليف :

شاعر الشعب ، حافظ إبراهيم (اقرأ)
جان جاك روسو - (اقرأ)
الغزل - في مجموعة « فنون الأدب العربي » (جزءان)
الوصف - » » »
المدح - » » »
الهجاء - » » »
عبد الرحمن الكواكبي - في مجموعة « نوا بغ الفكر العربي »
الأمير شكيب أرسلان - حياته وآثاره . في « مكتبة
الدراسات الأدبية »
تحت الطبع

سير وتراجم

إن تاريخ الأمم والشعوب حافل بألوان من البطولة والتضحية
والتيوع تجلوها لنا كتب السير والتراجم وتفصل لنا الحوادث التي
أحاطت بأصحابها وتعرض علينا دقائق حياتهم فنوثق معرفتنا بهم ونكبر
عقرياتهم وتخدم مثالا يؤثر في عظام الأمور .

وفي مطبوعات دار المعارف مجموعة كبيرة من كتب السير
والتراجم يحذر بكل قارئ عربي أن يطلع عليها وينطبع بها نذكر منها
على سبيل المثال :

- صور من حياة الرسول للأستاذ أمين دويدار الثمن ١٢٠
- عثمان للدكتور طه حسين » ٥٠
- علي وبنوه للدكتور طه حسين » ٦٠
- المعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام » ٢٥
- شكري القوتلي للأستاذ عبد اللطيف اليونس » ٤٠
- من آثار مصطفى عبد الرازق
- قدم لها الدكتور طه حسين » ٧٥

فضلا عن مجموعة « مشاهير العرب » ومجموعة « أعلام التاريخ »

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع